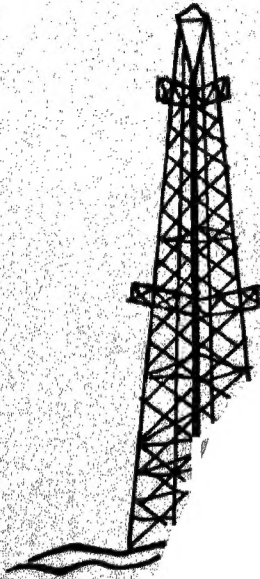


دراسات خليجية

البحر الزيت دراسات خليجية



ترجمة وتقديم
دكتور محمد غانم الرميحي
باسم سرمانس

اڪريٽ
فتيل
اڙو

سأعدت جامعة الكويت في طبعه

دراسات خليجية

(١)

الكويت قبل النفط

ترجمة وتقديم

دكتور محمد غانم الرميحي

باسم سرمانس

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الاولى

آب ١٩٧٥

منشورات دار حوار للطباعة والنشر

الكويت

مقدمة

مذكرات الدكتور س . ستانلي ماليري التي نضعها بين يدي القارئ العربي في هذا الكتيب - هي وصف معاشيش لتطور الكويت ، يرويها شاهد عيان ساهم شخصيا في أو راقب عن كثب مجريات الامور سواء في الكويت التي كانت مقر اقامته الدائمة ، أو في البحرين التي قضى فيها بعض الوقت كطبيب .

لقد كانت هذه المذكرات الشخصية للدكتور ماليري مطبوعة على الآلة الكاتبة بالانكليزية ومودعة في مكتبة مركز الشرق الاوسط في جامعة اكسفورد في بريطانيا . والظاهر ان اهل كاتب المذكرات كان نشرها بتلك اللغة .

الا انه من الواضح ان نشر هذه المذكرات في الغرب لم يكن ذا مردود مالي مجز لكثير من دور النشر التي عرضت عليها المخطوطة ، فنامت هناك لمدة طويلة .

واذا كانت اهميتها للقارئ العربي أمرا مشكوكا فيه فهي بعكس ذلك بالنسبة لقارئنا العربي ، وبخاصة الخليجي منه ، فان هذه المخطوطة - التي ترجمناها هنا - بالغة الاهمية لعدة اعتبارات . الاعتبار الاهم ، انها تضم بين دفتيهما

معلومات جديدة يعرفها القارئ العربي لأول مرة وكان قد عايشها كاتب المذكرات ، فهو هنا يصف مجموعة من الحوادث التاريخية التي خبرها عن قرب ، وسجلها بأيامها وزخمها .

ورغم ان هذه المذكرات تبدو للقارئ في أول الامر وكأنها ذكريات كتبت كيفما اتفق من شخص «يهوى» الكتابة ويمتهن «الطب» والبتشير ، الا ان الملاحظ المدقق يمكن ان يتعرف على رموز القيادات البشرية التي تصدت للعمل السياسي في ذلك الوقت في الكويت وما جاورها ، فهو يصف رجالا قابلهم سواء من الكويتيين أو من رجال حكموا بعضا من اقطار جزيرة العرب ، وسجل لنا بكل أمانة ردود أفعالهم كما شاهدها على كثير من الموضوعات . فقد وصف مثلا الشيخ مبارك حاكما فقال كما كان يراقب « وقد حكم مبارك الكويت بيد حديدية وكانت كلمته قانونا ولم يكن يسمح لأي من رعاياه بالاحتفاظ بعربة أو حتى بجواد للركوب، اما المسنون المقعدون فكانوا يركبون حميرا متواضعة » كذلك وقد وصف « يوم الأحد الدامي » الذي عاشته الكويت في العاشر من أكتوبر ١٩٢٠ والذي كان يوم معركة الجهراء الشهيرة ، ووصف الاستعداد للحرب وتلقي أبناء القتال ، وحال المدينة الصغيرة آنذاك وهي تتوقع بين فينة وأخرى دخول المحاربين المهزومين وخلفهم جموع المنتصرين ينهبون المدينة الصغيرة ، وقبل ذلك وصف عملية بناء سور الكويت الذي كان من المفروض أن يحمي المدينة من الغزو ، وقارن بين هذا السور وكلمة مبارك الصباح عندما قال « ان الكويت لا تحتاج الى سور .. أنا سورها .. » .

ويذهب الدكتور ماليري في سرد ذكرياته عن الفترة التي عاشها في الخليج (البحرين والكويت بين عام ١٩٠٧ و١٩٤٧

الفترة التي كتبت عنها المذكرات) فيأتي على حوادث وقصص شارك فيها او رآها بعينه ويصف ذلك المجتمع البسيط الذي غدا في يومنا هذا مجتمعا معقدا تجتاحه عوامل التغير - فكان من الضروري معرفة ما كان عليه السابقون لاجراء مقارنة يستفيد منها الباحثون في المستقبل .

وهنا من الضروري ان نبين ان كاتب المذكرات قد انساق في بعض من ملاحظاته حول تعميمات كان الاجسد ربه ان لا ينساق وراءها وهي تارة تعميمات يمكن اعتبارها سلبية وتارة تعميمات يمكن اعتبارها ايجابية - ولكن في الحالتين يجب التحفظ عليها ، وهي لا تغيب عن بصيرة القارئ الحصيف .

ولقد حاولنا في هذه الترجمة ان نورد ما قصد اليه الكاتب من معنى بالدقة التي تسمح بها الترجمة دون المساس بسياق وسلاسة السرد - ما امكن - كما اننا جربنا وضع بعض الملاحظات في الهوامش والتي اعتقدنا ان الكاتب قد جانب الصواب فيها اما تاريخيا او من حيث المعلومات .

لقد كان واضحا من خلال سرد الكاتب لمذكراته ان بقاء وبقاء الكثير من امثاله من المبشرين - في خليجنا العربي - كان في حقيقته ذا دافع ديني - وقد نكره دون تحفظ في اكثر من موقع من خلال السرد للاحداث التي شهدا - ونحن بدورنا - عندما نتحفظ على هذا الدافع نعترف ان الارسالية التبشيرية التي غزت منطقة الخليج منذ الربع الاخير من القرن التاسع عشر ، واستمرت خدماتها حتى حوالي منتصف هذا القرن في بعض الاقطار الخليجية ، وما زال البعض منها قائما - كما في البحرين - قد ادت لمجتمعات الخليج خدمات جليلة وبخاصة في مجال الصحة - وبشكل محدود في التعليم .

كما انها ولاسباب واضحة قد فشلت في المهمة الرئيسية غير المعلنة وهي التبشير . فقد ذكر امين الريحاني هذا الموضوع في كتابه ملوك العرب ، عندما لاحظ خلال زيارته للمنطقة الخليج في عشرينيات هذا القرن - وهو المسيحي - صعوبة انتشار المسيحية ، واقترح ان تقتصر خدمات هذه الارسلالات على التعليم والصحة فقال (لست كما يعلم القارئ ممن يحبون بالمرسلين ويستحسنون التبشير بالاديان ولكن في البحرين معهدا امريكي ديني الاصل طبيا وتهذيبى العمل ، وهو مؤلف من كنيسة يخدمها قسيس ، ومدرسة - كانت يوم زرت الجزيرة مغلقة - ومستشفى وصيدلية يديرها طبيب فاضل وبعض السيدات اللواتي يساعدنه ويثبتن عملا لا قولا روح التهذيب والارتقاء . . . ولكن هذه الرسالة في البحرين والكويت والبصرة تستطيع ان تضاعف خيرها وتعممه لى اقلعت عن التبشير وحصرت ما لديها من اسباب البر في الطبابة وفي التعليم المجرد من حب الهداية الروحية ذلك لان المسلمين وخصوصا العرب منهم راضون رضى عجيبا بدينهم ولا يرغبون في سواء بديلا » (١) .

وقد كان استخلاص الريحاني في اوائل العشرينات حقيقة لا تقبل الجدل فقد كان التبشير ذاته عملا صعبا لم يستطع ان ينفذ الى جزيرة العرب . ولكن هؤلاء الاطباء الذين عملوا في هذه الارسلالات لا شك قد ادوا لنا خدمات جلى ليس في عملهم الطبي فقط وانما في عملهم الادبي ايضا .

فواحد مثل الدكتور صامويل زويمر ZWerner, S. m. الذي كان من الرواد الاوائل من المبشرين في هذه المنطقة قد

(١) امين الريحاني : ملوك العرب - مجلد ٢ - الصفحة الخامسة
١٩٦٧ ص ٢١٢ .

ترك لنا عملا رائعا في مطلع القرن حول مجتمعات جزيرة
العرب في عمله ذائع الصيت ARABIA: THE CRADLE OF
ISLAM والذي صدر في نيويورك عام ١٩٠٠ .

ثم بعد ذلك مؤلف آخر نشر في سنة ١٩١٥ بعد وفاة
مؤلفه وعنوانه « الطفولة في البلاد الاسلامية » Childhood
in the Moslem World ويعد من نفائس الكتب حول الطفولة
كتبه مبشر في أوائل القرن .

كما ان طبيبا آخر هو الدكتور بول هــريسون
Paul W. Harrison والذي ترك لنا تحفتين رائعتين الاولى
في كتاب « العرب في دراهم » The Arab At Home
والذي نشر في نيويورك عام ١٩٢٤ ، ثم كتاب « طبيب في
جزيرة العرب » Doctor in Arabia ونشر في نيويورك
عام ١٩٤٠ .

وفي الكتابين عددا مجموعة من المقالات القيمة كتب
الدكتور هارسون عن مجتمعات الخليج وشرق الجزيرة العربية
باستفاضة وشرح الظروف الاجتماعية وطرائق معيشة هذه
المجتمعات ، وسبل حصولها على الرزق . لقد أسست الارسالية
العربية The Arabian Mission والتي هي تابعة للكنيسة
البروتستانتية الهولندية في أمريكا مجموعة من المراكز
التبشيرية في مقصدها والتعليمية والطبية في ممارستها -
أسست مركز لها في البصرة والبحرين والكويت وعمان وهي
تهدف الى محاصرة جزيرة العرب بهذه المراكز وتطمح بعد
ذلك الى غزو الاسلام في عقرداره - ولكنها - كما نعرف الان
- فشلت في ذلك - .

الا ان من بعثتهم هذه الارسالية كما ذكرنا قد ألفوا الكتب
أو نشروا ابحاثا مستفيضة في المجلة التي أسستها «الارسالية

العربية» والتي كان اسمها في البداية «الرسالة العربية» .
رسائل ربع سنوية من الميدان » ثم غيرت الى اسم جديد هو
« العربية المنسية » Neglected Arabia ثم غير الاسم
مرة اخرى الى « العربية تنادي » Arabia Calling ثم
غيرت اخيرا الى «مجلة العالم الاسلامي» Moslem World
وقد نشرت في هذه المجلة على اختلاف اسمائها كثير من
المقالات والدراسات حول جزيرة العرب والخليج . وبالرغم
من استمرار هذه المجلة الاخيرة الا ان المحاولة التبشيرية قد
اعلن عن سقوطها في كتاب نشر عام ١٩٣٨ لكاتب مبشر هو
ستورم هارولد « بلاد العرب الى أين ؟ »
Storm W. Hardls. «Whither Arabia»

ويقي في النهاية الاتجاه الى رصد هذه المحاولات التي
تمت في ثلاثة ارباع قرن تقريبا وصرف عليها الكثير، وانشئت
من اجلها المستشفيات والمدارس . ان رصد هذه التجربة -
تجربة التبشير في الجزيرة والخليج - ومردوداتها الاجتماعية
والسياسية امر متروك لباحثينا الشباب - وما هذه المحاولة
الا لبنة صغيرة في بناء كبير يحتاج البدء فيه الى جهود كثيرة .

د . محمد الرميحي

الكويت قبل النفط
مذكرات س. ستانلي ج. مالميري
الطبيب في البحرين والكويت
١٩٠٧ ~ ١٩٤٧

فترة الرسالية في البحرين

في يناير (كانون الثاني) عام ١٩٠٧ وطأت أقدامنا أرض الجزيرة العربية لأول مرة . وما تزال صورة دخولنا ميناء مسقط الجميل عند بزوغ الشمس واضحة في ذهني . وقد طالعنا الحصون البرتغالية ، التي بنيت في القرن السادس عشر ، من فوق المرتفعات الصخرية لهذا الحوض البحري ، وحدقت بنا الجبال الجرداء السوداء . وكانت طيور الحدأة والنورس تطير فوق رؤوسنا وهي تزقق . وحالما رسست السفينة في الميناء أطلقت طلقة مدفع واحدة لإعلام أهالي مسقط بأن البريد قد وصل ورد أحد الحصون التحية بطلقة مدفع مماثلة .

وكانت الجوانب الصخرية للميناء مغطاة بأسماء السفن التي كانت تزور مسقط لسنين عديدة . ومسقط فريدة في هذا الامر ، وتشكل نقطة استراتيجية في تاريخ ارساليات التبشير . فقد زارها هنري مارتن عام ١٨١١ . كما ان المطران فالبي فرنش ، عضو الجمعية الانجليزية للارساليات الكنسية مات في هذا المكان عام ١٨٩١ ، بينما يرقد جورج اى . ستون ، عضو الارسالية الامريكية العربية ، في نفس المقبرة في كهف صخري قريب من الساحل وقد عمل هنا بيتر زويمر ، ولكنه رجع الى بلاده عام ١٨٩٨ نتيجة مرضه ، حيث توفي في أحد مستشفيات

نيويورك • وقد كان مقدرا للدكتور شأرون ج • تومس الانضمام الى مجموعة المقبرة الصغيرة ، ولكن تلك الحادثة المحزنة التي وقعت بعد ذلك بسنوات كانت ما تزال في عالم المجهول في مطلع عام ١٩٠٧ •

وقد كان آل كانتين أول المبشرين الذين رحبوا بالسيدة زوجتي وببي شخصيا • وتجدر الإشارة الى ان السيد كانتين كان احد راندي الارسالية الامريكية العربية وكان الرائد الآخر هو الدكتور صموئيل م • زويمر • فقد كان جيمس كانتين أول عضو في الارسالية يبحر من امريكا الى الجزيرة العربية وذلك عام ١٨٨٩ •

وقد أمضينا اسبوعين مريحين في مسقط • وتشجعنا كثيرا لحديث السيد كانتين عن جولاته في الجبال المحيطة بنا حول مسقط ، وعن رحلاته الى الوديان الخصبة خارجها ، وعن علاقاته بشعب عمان المضياف • وقد كانت السيدة كانتين مضييفة لبقية ، وقامت بتقديم زوجتي « بسي » الى النساء العربيات • وقد تلقينا أول دروس في اللغة العربية في مسقط ، حيث اختار استاذنا ، وهو انسان ينقصه الخيال ، الفاتحة والصلاة لتكون أول دروسنا بالعربية برغم صعوبة كلماتها •

وقد قضيت بعد ذلك فترة شهرين من عام ١٩٤٢ في مسقط ومطرح مع آل ديكستارز ومع ولز توماس ابن شأرون تومس ، عرفت خلالها حقيقة الجهد الكبير الذي بذله الرجلان ، فقد زارا من الاماكن النائية ما لا يتوقع المرء ان يزوراها ، وتركنا في كل مكان زاراه اثرا طيبا ونكرى حميدة •

ووصلنا في اواخر شهر يناير (كانون ثاني) الى البحرين ، وهي مجموعة جزر اللؤلؤ التي قام الدكتور صموئيل م •

زويمر بأول عمل رائد فيها . وقد كانت البحرين سنة ١٩٠٧ مكانا يائسا الى اقصى الحدود ، رغم انها لم تكن بنفس اليأس الذي عرفه زويمر عندما عاش هناك في أوائل التسعينات من القرن الماضي . وقد سمعت أن زويمر احضر أول كرسي وأول شمسية الى البحرين . وربما لا يكون هذا الكلام صحيحا ، الا ان له مدلولاته ، لان مما لا شك فيه ان زويمر حمل معه عصرا جديدا الى هذه الجزر . وقد تبع خطواته ، سواء من المسؤولين الحكوميين أو التجار أو المبشرين ، على أساس ما بدأ به هو من مظاهر «التحديث» .

كان ميناء البحرين عام ١٩٠٧ خاليا من اية تجهيزات . فلم يكن هناك أي رصيف أو حاجز مائي ، وكان الانتقال من السفينة الى الشاطئ يتم على ثلاث مراحل . المرحلة الاولى كانت يقارب شراعي كبير يبحر حتى يتوقف بسبب ضحالة المياه ، والمرحلة الثانية يقارب أصغر يبحر حتى يتوقف هو الآخر ، والمرحلة الثالثة على ظهر حمار ينقل الركاب الى اليابسة .

وتعاني البحرين بشكل كبير من الطقس الرطب . فالرطوبة تنضح من الارض ، والطرق لا تجف ابدا في مناطق عديدة في أرجاء الجزيرة . ولم تكن هناك بلدية ، وبالتالي لم يكن أحد مسؤولا عن تنظيف الشوارع . فالمقامة متناسلة في كل مكان ، والذباب سيد الجو ، والفئران ترتفع في الشوارع . أما الكلاب الموراء والعرجاء والجانعة ، والمغطاة بالبق والقرح فكانت تقتل فيما بينها على أي طعام تئن تجده . وكانت الحمير البيضاء الكبيرة أو الحمير الداكنة الصغيرة تعبر الشوارع ببطء وهي تحمل أثقالا على ظهورها . ومع أن بعض هذه الحمير كان صحيح الجسم قويا ، الا ان

معظمها كان ضعيفا عليا .

وكان خلف المدينة العديد من البرك الضحلة الراكدة الخضراء والمليئة بالبعوض . ولم يكن وضع سائر على النوافذ معروفا حتى في بيوت الارسالية الامريكية . وكانت الملاريا والتيفوئيد والديزنتاريا لا تواجه اية مقاومة . اما الجدري فكان مستوطنا ، والسل منتشرا ، والبرص امرا عاديا . وكانت الطفيليات كالديدان المعوي والبلهارسيا تزيد من مصاعب الحياة .

وقد عاش اول المبشرين الذين ارسلناهم في بيوت استأجروها من العرب في ظل اوضاع غير مريحة اطلاقا ، الى أن تمكن الدكتور زويمر من اقناع صديق ببناء بيت حسب مواصفات حددها له بنفسه . وكان هذا البيت ، الذي يتألف في الواقع من ثلاثة بيوت تحتل ثلاثة جوانب من باحة مربعة ، يعتبر افضل من اي منزل سابق ، وقد عشت وزوجتي فيه مدة عام تقريبا .

كان سجل الارسالية الامريكية العربية الصحي آنذاك سيئا ، فقد اصببت زوجتي بالملاريا المقاتلة في مسقط ، حتى كادت تشرف على الموت في يناير (كانون ثاني) ١٩٠٧ ، ومن الغريب انها لم تصب بالملاريا مرة ثانية مع ان البحرين كانت وما زالت تعج بالحمى بالرغم من الحملات الوقائية المكثفة ضد هذا المرض ، كما ان تواجد موظفي المستشفى جميعا في وقت واحد كان امرا نادرا ، اذ غالبا ما يتغيب موظف أو أكثر بسبب اصابته بالملاريا .

وكان هناك عدو عنيد آخر في البحرين وهو الحمى التيفوئيدية ، وقد اقعدتني الفراش في آخر سبتمبر (ايلول) عام

١٩٠٧ • وكانت اصابتي خطيرة جدا، واخبرني الدكتور شارون تومس الذي كان يعالجيني فيما بعد انه قد يشس من وضعي اكثر من مرة • ولكن العناية الفائقة التي لقيتها من كل من في المستشفى ، وخاصة من زوجتي ومن شارون تومس ، بالإضافة الى رحمة الله ساعدتني على التماثل للشفاء ، وما زلت اذكر الجهد الذي بذله شارون لساعات وهو يعمل على آلة فرنسية مزيلة لكي يصنع لي قطعة ثلج صغيرة •

وكيف انسى الذباب الذي كان يحط بأسراب كثيفة على المربي حالما نفتح غطاء العلبة مما كان يضطرنا الى التهوية باللقمة من الصحن الى الفم لكي نمنع دخول الذباب الى افواهنا • وكانت توجد تحت نافذة غرفة طعامنا كومة من الاقذار يلقي بها الجيران بسخاء ، تشاركهم في ذلك مجموعة من البرص • وكانت هذه الاقذار تجلب لنا الامراض •

ودفع مرضي الشديد مجلس الامناء في نيويورك للتحرك • فقد شعروا بأنه لا بد من اتخاذ اجراء لمواجهة الاحوال غير الصحية في البحرين • فقد كانت نسبة الوفيات ونسبة الملل الصحية عالية جدا • وكتب الدكتور كوب الى الارسالية في البحرين يطلب تشكيل لجنة لدراسة الوضع وارسال تقرير عنه للمجلس • وقد عينت الارسالية في اجتماعها السنوي في يناير ١٩٠٨ كل اطباؤها اعضاء في اللجنة وعينتني رئيسا لها •

وقد رفعت اللجنة تقريرها للاجتماع السنوي واصدرت عدة توصيات ، اهمها وضع ساتر على نوافذ البيوت • ومنذ ذلك التاريخ حتى اليوم لم يصب اي من اعضاء ارساليتنا بحمي التفوئيد في البحرين ، رغم ان حالتي حمى صعبتين حصلتا بعد ذلك ويمكن اعتبارهما حالتي تفوئيد اوبارا تيفوئيد خفيفتين •

ولم تفقد الارسالية اي عضو من اعضائها بسبب الامراض
المعدية الحادة منذ احاطة النوفذ بساتر ٠٠ والاستثناء الوحيد
كن موت (كرستين افرسون بينت) بالتيفوس عام ١٩١٦
اثناء الحرب العالمية الاولى وكان لموتها اسباب ساهدت عنها
فيما بعد ٠

وقد اوفدتني الارسالية في مارس وابريل ١٩٠٨ الى
الشارقة ودبي في جولة طبية ٠ وكانت المدينتان قريتين من
بعضهما وتقعان على ساحل كان يعرف بساحل القراصنة ،
ولكنه سمي ساحل الهدنة منذ وقت طويل ٠ وقد رافقتني
موظفان اخران هما يوسف امين ، المستخدم الذي يوزع الكتب
الدينية بالمجان ، وهو عراقي تحول الى اعتناق المسيحية وكان
جنديا سابقا في الجيش التركي ، ويوليوس عبد المسيح ، وهو
صيدلي من المستشفى ٠ (ولا بد ان بعض اصدقائي يتذكرون
يوليوس الذي افتتح صيدلية في البصرة فيما بعد ، وتوفي
عام ١٩٤٥) ٠ وقد خبرت في دبي لأول مرة حقيقة معنى العداء
الاسلامي ٠ ولكننا استطعنا القيام بنشاط طبي كثيف هناك ،
بينما استطاع يوسف امين بصبره اللامتناهي وحنكته ان
يلطف من حدة الجو العام المعادي ٠

وعرفت هنا معنى العبودية ، في هذا المكان الذي يخلو
من التأثير المسيحي الفعال ، وما زلت اذكر ولدا فقيرا عوقب
بان ظال يكرى بالنار في اعلى كتفه حتى وصلت النيران الى
العظم ، واصيب بالتهاب شديد (غرغرينا) وكان قطع الذراع
العلاج الوحيد الممكن ٠

وقد حاول عربي في الشارقة ان يهديني الى الاسلام
وبذل جهودا كبيرة في سبيل ذلك ٠ وكان الرجل سمحا وصادقا

الى ابعد الحدود • وما زلت احتفظ بكتاب صلاة عربي جميل
اهداني اياه ، وكتب اسمه واسمي على الصفحة الاولى منه •
كان ذلك منذ اربعين عاما ، وغالبا ما اتساءل اذا كان صديقي
المتحس ما زال على قيد الحياة •

وكننت في صيف عام ١٩٠٨ مسؤولا عن ادارة مستشفى
ماسون التذكاري لثلاثة شهور اثناء غياب شارون تومس في
اجازة في الهند • ثم عينت عام ١٩٠٩ مسؤولا دائما عن
المستشفى بعد ارسال ال تومس الى مسقط لانشاء مركز طبي
هناك • وكان الدكتور تومس يتولى مسؤولية هذا المستشفى
منذ انشائه عام ١٩٠٢ ، وهو اول مستشفى بنته الارسالية
العربية الاميركية • وكننت دائما افكر بالمعاناة الفائقة التي
عاشها الدكتور شارون تومس عندما اضطر الى ترك العمل
الطبي الذي بداه من الحفر في البحرين ، وذهب الى مسقط ليبدأ
من الصفر من جديد • وقد تقبل مهمته الجديدة بفروسية وبني
مركزا طبيا في مطرح آلت مسؤوليته الى ابنه ولز •

وقد تعلمت في هذه الاثناء كيف اتحمل المسؤولية في
البحرين ، واستفدت كثيرا من تجاربي وخبرتي هناك •
وشاركني في العمل اثناء اقامتي في البحرين ولفترات متفاوتة
الاطباء زويمر ، وكافنتين ، وبارني والفس جيمس مورديك •

وكان الدكتور زويمر يتناول وجباته عندنا اثناء غياب
عائلته لبضعة اسابيع • وكان أحد الامور البارزة في علاقته
ان العرب يقصدونه • فهو لم يكن مضطرا للجري وراءهم •
ونادرا ما كانت مكتبته ، المليئة بالكتب ، تخلو من زائر أو
زائرين • وكان زويمر يعطي نفسه كلية لزواره • والامر الذي
يزيد من غرابة شعبيته في اوساط الناس كونه مبشرا صلبا لم
يخفف من حدة رسالته لكي يجعلها اكثر قبولا لدى سامعيه •

وكننت أعتقد أن حماسه يتخطى الحدود المعقولة وأنه ربما اضر بقضيتنا أكثر مما افاد. ولكن زويمر اكتسب احترام الجميع ومحبة البعض في البحرين . وهو البشر الوحيد بيننا الذي يستحق اسما عربيا عن جدارة . وما زال الكبار في السن حتى يومنا هذا يتكلمون عن ضيف الله او « المتائه في خدمة الله » .

وانا اذكر مناسبة ذهبت فيها مع الدكتور زويمر واثنين او ثلاثة من زملائنا الى سوق الخميس على بعد عدة اميال من المنامة ، عاصمة البحرين . وقد توقفنا عند مقصف شاي ايراني وقدم لنا الشاي* . وعندما شربنا اعدنا الفناجين الى صاحب المقصف الذي كسرهما فورا والقى بقطعها على الارض، لان المسيحيين شربو منها ودينسوها . وتصدى زويمر للرجل قائلا: « الى متى ستستمررون في هذا التصرف » واخذ حشد من الناس يتجمع حولنا في نفس الوقت . وسأله « اين صنعت هذه الساعة التي في جيبك ؟ وتلك الشمسية ؟ وهذا الثقاب على الطاولة ، والحطة على رأسك ؟ والثوب الذي صنعت منه عباءتك ؟ لولا المسيحيون لكنت عاريا ، ولما امتلكت ايا من منتجات الحضارة » .

كان تهجم زويمر حذقا ، وفهم الناس معنى كلامه . فقالوا « ان ما يقوله هذا الرجل صحيح » .

وقام زويمر بادخال الساعة العامة الى البحرين . وكان

* واضح ان الكاتب وقع في الخطأ الذي يقع فيه كثير من الكتاب الغربيين بان خلط بين الشيعة والاييرانيين . لان سوق الخميس يقع في قرية الخميس المعروفة في البحرين وكل سكانها بشارنة ينتمون الى المذهب الشيعي .

ذلك بعد ان بنى جيمس مورديك كنيسة البحرين عام ١٩٠٥ ولم
ينقصها سوى الساعة . وقام زويمر خلال بضعة ايام بجمع ثمن
الساعة من الاصدقاء والتجار المحليين . وقد صحبته في
بعض زيارته الى المخابزن والمكاتب وفوجئت بالتبرعات
السخية التي قدمت لنا . وتم طلب الساعة من مصنع
الماني ، ودفعنا ثمنها (٤٠) جنيه استرليني ، وما زالت في
حالة جيدة بعد تسعة وثلاثين عاما في ظل مناخ من اسوأ
مناخات العالم . وقد احدثت الساعة هرجا ومرجا كبيرين في
البداية ، وغالبا ما كنا نشاهد حشدا من الناس يقفون امام
الساعة ليسمعونها تدق كل نصف ساعة .

وقد كانت هذه الساعة بمثابة معلم للجمهور ، لانها كانت
تعمل طبقا للتوقيت الاوروبي الذي لم يكن عامة الناس يعرفون
عنه شيئا . فقد كانوا وما زالوا - الى حد كبير - يستعملون
التوقيت العربي* . فالיום الجديد يبدأ في الجزيرة العربية
عند غروب الشمس ، حيث يعتمد الجميع الى وضع ساعاتهم
على الثانية عشرة ، وهذا امر بسيط بالنسبة لاناس يعيشون في
بلد خال من الغيوم حيث يمكنهم مشاهدة الشمس وهي تغيب
خلف الافق . ولمعرفة التوقيت العربي اثناء الاعتدال الربيعي
والخريفي (اعتدال الليل والنهار مرتين في العام ، حوالي ٢١
مارس و ٢٣ سبتمبر) عندما تفسرب الشمس في الساعة
السادسة تقريبا ، ليس على المرء سوى اضافة ست ساعات الى
التوقيت الاوروبي . ولكن تحويل التوقيت الاوروبي الى توقيت
عربي في بقية اشهر السنة عملية تتطلب حسابات معقدة .
الاوروبي على الوجه الآخر .

* يشير الكاتب هنا في استعماله تعبير « ما زالوا » ربما الى سنة
كتابة المذكرات في أواخر الأربعينات .

واذكر ان بعض الساعات العامة في اسطنبول كانت عام ١٩٠٦ تحمل التوقيت العربي على احد وجهيها والتوقيت

ولا اعتقد ان في اسطنبول اليوم ساعة واحدة تعمل بالتوقيت العربي . فقد لعب الراديو دورا هاما في تعريف عامة الناس بالتوقيت الاوروبي ، لان على المرء ان يعرف التوقيت الاوروبي لكي يتمكن من معرفة اوقات النشرات الاخبارية العالمية . ويمكن الان لكل فرد في الجزيرة العربية تلقي اي مقدار من التعليم ان يعرف التوقيت الاوروبي تمام المعرفة .

اما اوقات الصلاة الاسلامية فما زالت تحدد بموجب التوقيت العربي وعليه فان كل الجوامع تتبع هذا التوقيت ، ولا بد من التذكير بان هناك خمسة اوقات للصلاة الاسلامية .
فقبل شروق الشمس بساعتين يسمع صوت المؤذن من على الماذنة يدعو المسلمين لصلاة الفجر ، وينهي الاذان بالدعوة المؤثرة الصلاة خير من النوم . . . الصلاة خير من النوم . .

اما الاذان الثاني فياتي بعد حلول الظهر بقليل ، والاذان الثالث بعد انقضاء ثلاثة ارباع اليوم ، عندما يكون خيال المرء مساويا لطوله . ويأتي الاذان الرابع عند غروب الشمس ، والخامس بعد انقضاء ساعة ونصف على غروبها ، اي الساعة الواحدة والنصف بالتوقيت العربي .

وهناك اعتقاد سائد في اوساء الاوروبيين ، لسبب غير معلوم ، بان المسلمين يصلون عند شروق الشمس . وغالبا ما يقرأ المرء هذا الاعتقاد في الروايات وكتب الرحلات كما في كتاب « السير والتر سكوت » مثلا . وهذه الملاحظة غير صحيحة لان شروق الشمس ليس احد اوقات الصلاة الاسلامية . فصلاة الفجر اختبار حقيقي لتقوى الناس ، وربما

يكون صحيحا - في هذه الايام التي يتراجع فيها الايمان - ان عدد الذين ينهضون قبل الفجر لاداء الصلاة في ليلة باردة ومظلمة من ليالي الشتاء ينخفض باستمرار .

كان زويمر متكلمًا بليغًا في مقر خدماتنا الطبية في البحرين . وقد كانت خطبه مدروسة بعناية ، وكنت اتعلم منها الكثير . وما ازال اذكر بشكل خاص سلسلة من الخطب التي القاها على المرضى عن المسيحية . فالسلم ، كالمسيحي الكاثوليكي والبودي ، يستعمل المسيحية . وتتألف مسيحية المسلم من ٩٩ حبة ، كل حبة تحمل اسما من اسماء الله الحسنى وهناك حبة طويلة خاصة تجعل العدد مئة . وتعرف هذه الحبة الطويلة « بالشاهد » وما زلت اذكر زويمر وهو يحمل المسيحية في يده ويكرر بعربية طليقة « الاسم الذي لا اسم فوقه » .

وكان زويمر مولعا بمقارنة المقاييس والاخلاقيات المسيحية بالمقاييس والاخلاقيات السائدة في البحرين . وما زلت اذكر حديثا له سمعته منذ سنين حول الاستقامة . فقد بدأ زويمر حديثه بسؤال الحضور : « هل اشترى اي منكم علبة ثقاب ؟ » وبالطبع سبق لكل الحضور ان اشتروا علبة ثقاب . « وهل اشترى اي منكم علبة ثقاب ناقصة ؟ » وبالطبع لم يشتر اي منهم علبة ثقاب ناقصة . « وهل اشترى اي منكم صندوقا يحتوي على دزينة علب ثقاب ؟ واذا كان كذلك فهل احتوى اي صندوق على اقل من دزينة ؟ » وهنا ايضا اتفق الجميع على ان كل صندوق كان مكتملا . وسألهم اخيرا : « هل سمعتم باي صندوق كبير لم يكن مليئا بصناديق صغيرة والصناديق باعواد ثقاب ؟ »

واجابوا حرفيا « واله لم يسمع اي منا بشيء كهذا » .

وهنا قال لهم زويمر : « ولكنكم عندما تشترون صندوق تمر من السوق تقومون بإدخال عصا حتى قعر الصندوق للتأكد من أن الصندوق مليء بالكامل » .

وفهم الجميع المقصود . فقد كانوا يعرفون أن التشبيه صحيح . وبالطبع يجوز السؤال إذا كان من الحكمة أن نقارن دينهم بديننا بشكل ليس في صالح دينهم ، ولكن الأمر يعتمد على كيفية إجراء المقارنة . وعلى الخطيب أن يكون متمكنا من لغة المستمعين لكي يستطيع التحدث حول أمور مزعجة دون أن يفضيهم أو يجرح مشاعرهم .

وكان زويمر يتحدث في المستوصف ذات صباح حول خطيئة الإنسان الأولى ، عندما قاطعه رجل قائلا : « إن آدم لم يخطئ » . فقد كان مكتوبا عليه أن يأكل من الفاكهة المحرمة . وتدل هذه الملاحظة على نقطتين في الإيمان الإسلامي : أولا أن كل الأنبياء بلا خطيئة – والمسلمون يعتبرون آدم نبيا ، وثانيا أن الإنسان ليس حرا أو مخيرا وإنما يعيش مصيره المحتوم من يوم إلى آخر . فمصيره مكتوب على جبينه ، ولا يمكنه عمل شيء لتغييره . وهذا الإيمان ظاهر أيضا في شعر عمر الخيام .

الخبرات الطبية في البحرين

عاصرت اثناء خدمتي في البحرين لأكثر من خمس سنوات انتشار وبائين ساريين هما الطاعون الدبلي* والكوليرا وكان وباء الطاعون متسوقعا مرة كل سنتين تقريبا . وما زال باستطاعتي استعادة صوت «شارون تومس» وهو يدخل حديقة « بيت جومان » في أوائل الصيف قائلا « الطاعون وصل » ، ويبدأ لي ان شارون قال الجملة بمتعة ظاهرة . وكنت وقتها جالسا على الشرفة مع زوجتي ندرس العربية ، وكان قوله حدثا قطع الروتين اليومي .

والطاعون ممرض مثير للاهتمام . ورغم ان علاقته بالجرذان قد لوحظت منذ العصور القديمة ، فلم يثبت ان برغوث الجرذ هو الذي ينقل العدوى الا في العصر الحديث . فقد جاء في الفصلين الخامس والسادس من الكتاب الاول لصموئيل (في الانجيل) ذكر الطاعون : « المصلحان الذي ضرب الفلسطينيين » فلو استعملت كلمة « التورم » او « الغليان » بدلا من المصلحان لاتضحت الصورة اكثر بكثير . ومن الواضح ان الممرض كان وباء لان الفلسطينيين كانوا

* الدبل هو ورم في الغدة اللعابية .

يموتون بأعداد كبيرة • وقد استدعي رجال الدين والحكام للمشورة حول كيفية التصرف إزاء الوباء • ومن الجدير تسجيل مشورتهم لأنها ربما كانت المرة الأولى التي يربط فيها ما بين الجرذ والدبل في ما يعرف بالطاعون الدبلي • فبماذا نصح رجال الدين والحكام ؟

لقد اقترحوا وجوب إعادة قوس الآلهة للإسرائيليين على أن يوضع في داخله خمسة صولجانات ذهبية وخمسة فئران ذهبية • ولم يكن التمييز ما بين الفئران والجرذان واضحا في العبرية والعربية ، وحتى اليوم لا يمكنك التأكد إذا كان المرء يتكلم عن « الجرذان » أو « الفئران » •

وكانت الطريقة الوحيدة لمواجهة وباء الطاعون تعتمد منذ أربعين عاما - كما هي اليوم - على اللقاح أو التطعيم • وقد أدى استعمال لقاح « رافكين » الشهير الذي اكتشف في الهند إلى انقاذ أرواح معظم المصابين بالوباء • وكانت الجرعة في ذلك الحين خمس سنتيمترات مكعبة للرجل وأربع سنتيمترات مكعبة للمرأة ، وكان اللقاح يعطى في العضل • وكان اللقاح ساما جدا ويحدث ردود فعل حادة في الجسد • وقد امرضني اللقاح عندما أصبت بالطاعون ، فانتفخت ذراعي إلى ضعف حجمها العادي ، وأصبت بالهذيان ليلة كاملة •

وكان الناس عند ظهور أول إشارة تدل على قدوم الطاعون - يتفحصون باطن أذرعهم وحول أفعالهم بقلق بحثا عن التورمات ، وخاصة إذا صحبتها حرارة • ولم يكن من السهل حث موظفي الأرسالية على التطعيم إلى أن تعلم الناس درسًا لا ينسى في إحدى السنين • فقد كان كل موظفي الأرسالية في ذلك الوقت يسلمون أنفسهم لحقنة التطعيم باستثناء البستاني ، الذي رفض التطعيم قائلاً إنه يثق بالله

وعندما يأتي اجله فلن يؤخره شيء • وقد اصاب البستاني بالطاعون بعد ايام قليلة ومات • وكان هو الموظف الوحيد من موظفي الارشالية الذي اصابه الطاعون • ولم يضع الدرس هباء •

واستيقظت زوجتي ذات ليلة على صوت الاذان وهو ينطلق من عدد لا يحصى من سطوح البيوت • وكان هذا شيئا فريدا لم اعده من قبل • فالاذان ينطلق خمس مرات في اليوم بحسب الاوقات المحددة للصلاة من الجوامع فقط وليس من سطوح المنازل • وسألنا في الصباح عما حدث ، فقيل لنا « كنا نصلي لله لكي يبعد الطاعون عنا »

وقلت لهم « لكنكم تؤمنون بالقدر وبعدم امكانية عمل اي شيء لردّه » •

وأجابني احدهم جوابا ما زال يطن في اذني بعد اربعين عاما : « ماذا نستطيع ان نفعل ؟ » •

وحقا ماذا يستطيعون ان يفعلوا ؟ فالانسان يلجأ الى الله في الظروف الصعبة بغض النظر عن عقيدته الدينية •

ولنعد الى الجرد الآن • فقد كانت اول علامة على وجود الطاعون منظر الجرذان الميتة في الشوارع وفي البيوت • وقد كانت هذه اشارة متأخرة فعلا • فالجرذان تمرض اولا ، وعندما تموت تكون براغيثها قد غادرتها • ورغم ان براغيث الجرذان لا تعيش على الانسبان فانها تفضل ان تتغذى من الانسان بدلا من ان تموت جوعا • ولم يكن عامة الناس يعرفون كل هذا ، لكنهم كانوا يعرفون انه عندما تجر الجرذان نفسها بضعف لتموت على الشوارع يكون الطاعون قريبا •

وما زلت اذكر ليلة مقمرة استيقظت خلالها وشاهدت
جرذا يحاول تسلق المغسلة بصعوبة * (فالجرذان المصابة
بالحمى تبقى دائما عطشى) * ولم يتمكن الجرذ الضعيف من
تسلق المغسلة فسقط على الطاولة ميتا * وقفزت فوراً من
فراشي ، وامسكت الجرذ بكماشة وحملتة الى الشرفة ، ثم
سكنت عليه كاز المصباح واشعلت فيه النار * وبعد ان اصبح
الجرذ رمادا ، اخذت حماما وارنديت ثياب نوم نظيفة *

اما وباء الكوليرا فقد كان مخيفا اكثر من الطاعون
وكان يجتاح البحرين كما تجتاح النيران الغابة ، ويقتل مئات
من الناس في بضع ساعات * ويتهاوى الشخص على الطريق
ليكون بعد وقت قصير في القبر * وكان الرعب من تلك الصورة
يوهن المعنويات لدى السكان ، فقد سبق وفنيت اكثر من عائلة
بكاملها ، اذ دخلت اكثر من بيت كان كل من فيه من الرجال
والنساء والاطفال امواتا *

وكان من الصعب دفن الجثث * فالجميع كانوا يرفضون
لمس الجثث * والجميع كانوا يرفضون البقاء في المقبرة مدة
حفر قبر بعمق مناسب * وكانت النتيجة حفر حفر غير عميقة
ولا تكاد تغطي الجثث * وكانت الكلاب تقوم ليلا بنيش الجثث،
ولا يحتاج ما يحصل عند ذلك الى وصف * وكانت المقبرة تقع
خلف بيت ارساليتنا الجديدة ، وعندما كانت تهب الريح من
المقبرة باتجاه البيت كان يصبح السكن فيه صعبا وغير
محمّل *

ولقد تخلصت البحرين منذ زمن طويل من الطاعون
والكوليرا * فقد تم القضاء على الطاعون بواسطة الخدمات
الطبية والوقائية ، واختفت الكوليرا منذ بدأت الابار

الارتوازية تزود المدينة بمياه الشرب ، ولم يعد الناس مضطرين لشرب المياه السطحية . وآخر مرة انتشر فيها الطاعون أو الكوليرا في البحرين كانت منذ عشرين عاما تقريبا .

وفي مجال الحديث عن الامراض سأعرض باقتضاب الى مرض الجدري الذي كان يستوطن البحرين . وكانت هناك دائما بعض حالات الجدري المخفية هنا او هناك . فقد كان ينظر اليه على انه « من الله » فاما الشفاء منه او الموت به . ولم يكن احد ليستدعي الطبيب اذا اصيب بالجدري . فلم يكن هناك علاج له . ولم يطلب مني طوال السنين التي قضيتها في الجزيرة العربية معالجة الجدري الا في حالات نادرة جدا

ومن الارجح ان الجدري هو السبب في نسبة عالية من الاصابات بالعمى في الجزيرة العربية . وكان من الممكن حتما حماية هذه العيون لو انها عولجت وابقيت نظيفة اثناء الاصابة بالمرض .

والتطعيم ضد الجدري منتشر حاليا في اوساط الناس ، ونحن نأمل بثقة ان يختفي لدى الجيل القادم منظر الوجه المنقور بالجدري والعينين اللتين لا تبصران . ولكن يجب الا نكون متفائلين اكثر من اللزوم ، فخلال الثمانية عشر عاما الماضية كانت الكويت عرضة لوباء جدري خطير (عام ١٩٣٢ على ما اذكر) قتل ثلاثة الاف شخص على الاقل ، وقضى تقريبا على كل الاطفال الذين تتراوح اعمارهم ما بين ثلاث وعشر سنوات ، بالرغم من وجود حملة تطعيم مكثفة . وقد ساعد هذا الوباء على ضعف الثقة بالتطعيم مؤقتا ، ولا عجب في ذلك . فعمل الاوبئة لم يصبح علما بالمعنى الصحيح حتى الآن .

وما زالت احدى الحالات الطارئة القديمة راسخة في

ذهني . فقد ضربت البحرين ربما اسوأ عاصفة في تاريخها :
مزيج من الرعد والبرق والامطار الغزيرة والرياح العاصفة .
واضحت المدينة كالبهيرة . وقد تمزقت اعداد كبيرة من
الاكواخ المصنوعة من الحصر ، بيوت الفقراء ، وحملت
الرياح بعضها مسافات بعيدة . ولحق الضرر بكل بيت في
المدينة . وتسربت المياه من كل سقف . وتمزق علم الشيخ
وتكسرت ساريته الى اثنتي عشرة قطعة صغيرة وكأنه عود
معكرونة . ولكن العلم المرفوع امام منزل ممثل الحكومة
البريطانية صمد امام العاصفة ، مما ادى الى انتشار بعض
الخرافات حول هذه الظاهرة .

وتم اعداد علم جديد ليحل محل العلم الذي كسرت
العاصفة . واعدت لذلك حفلة رسمية اطلقت المدفعية اثناءها
تحية للعلم . وكان المدفع الذي استعمل في اطلاق التحية من
النوع الذي يحشى حشوا ، ويرجع تاريخه الى ايام غزو
البرتغاليين للبحرين . وكان من الضروري تنظيف ماسورة
المدفع بعد كل طلقة لازالة فتات البارود الذي علق بها .

ولم يتم ملء المدفع في احدى المرات ، بادخال قطعة
الاسفنج الى نهاية الماسورة لتنظيفها ، مما ترك فتات بارود
صالح فيها . وعندما وضع قنبلة جديدة في المدفع انفجر المدفع
فورا . واصيب الملقم بجروح بليغة وفقد عينيه ، وزالت بشرة
وجهه كلها تقريبا ، ونزف الدم من انحاء جسمه بغزارة .

وقام زملاء المصاب فورا ، كاسعاف اولي ، بذبح خروف
اسود وسلخوا جلده بسرعة ثم لفوه به . وقد احضر المسكين
بهذه الصورة الى المستشفى . وقد يبدو الامر غير قابل
للتصديق ، ولكنه ظل ثمانيا واربعين ساعة على قيد الحياة .
وقد كانت درجة حرارته عند وفاته اعلى درجة حرارة لمستها في

حياتي . لا اذكر الآن كم كانت بالضبط ، انما احسب انها كانت
١٠٨ درجات مئوية تقريبا .

وسأتحدث الآن عن الامراض الناتجة عن الحشرات
الطفيلية . وقد انتشر احد هذه الامراض في البحرين منذ
اربعين عاما ، وكانت له اسماء عديدة ، فقد سمي «دودة غينيا»
«دودة لنفا» ، «دودة زنجبار» ، و «بيوك» او «فيوك» . وكان
اسمه العلمي حينئذ دراكنكواس مدينسيس *Dracunculus*
Medinensis وتبين فيما بعد انه ينتمي الى فيلاريا

Filariae Medinensis . وسيرة حياة هذه الحشرة الطفيلية
مثل باقي الطفيليات ، ممتعة بشكل خاص . فالمرضى يأتي الى
المستشفى ويشكو من تقرح ينز اوساخا ويكون في الجزء
السفلي من الساق عادة ، او فوق القدم في الحالات الاسوأ .
ويظهر الفحص دودة بيضاء لماعة تشبه *vermicelli* قابعة
في التقرح ، ويطل جزء منها . ويقوم الطبيب بلف الجزء
الظاهر من الدودة حول عود ثقاب لكي لا تتمكن من التراجع
الى داخل نسيج الساق . ومن المستحيل عادة سحب الدودة
خارج الساق ، خاصة اذا كانت ملتفة حول الاوتار كما هو
الحال عند خروج الدودة من باطن القدم مثلا . وهكذا فان
العلاج المعروف هو لف جزء صغير من الدودة كل يوم حول
عود ثقاب الى ان تتمكن من اخراج الدودة كلها .

ويصل طول الدودة المكتملة النمو الى ١٨ بوصة (٤٥
سنتيمترا تقريبا) . وتكون هذه الدودة عادة انثى وتترك جسم
الانسان من اجل وضع اجنتها الحية ، اذ انها لا تضع بيوضا .
ولكي تعيش هذه الاجنة يجب ان تلقى في الماء . وقد تدبرت
الطبيعة هذا الامر بعناية . فالمرضى يذهب الى البئر بصورة
منتظمة لآخذ الماء ولغسل تقرحه ، واثناء غسل تقرحه تعود

اجنة عديدة من ساقه الى البئر دون أن يدري . ماذا يحدث
للجنين حينئذ ؟ بعد سقوط الجنين في الماء يبتلعه برغوث الماء*
وهو حيوان اشبه بالسرطان (السلطعون) . ويبدأ الجنين
اولى مراحل نموه داخل برغوث الماء . واثناء قيام الناس
بشرب ماء البئر يبتلعون براغيث الماء . وتهضم افرازات معدة
الانسان براغيث الماء لكنها لا تهضم جنين الدودة الذي يبدأ
في المعدة مرحلته الثانية من النمو . ويشق طريقه عبر خائضها
ليستقر في العضل حيث يبلغ مرحلة النضوج . وعندما يصبح
الدود جاهزا لموضع نتاجه يخرج من جسم الانسان من خلال
بطانة الجلد في اكثر الحالات .

وكل ما هو مطلوب لحماية النفس من هذا المرض قيام
المرء بتصفية المياه التي يشربها بواسطة منديل جيب ، لان
براغيث الماء تعلق بالمنديل . ولكن حتى هذا الاجراء الوقائي
لم يكن متبعاً . وان شك عامة الناس بهذه الوسائل امر معروف
تماماً . وقد انتزعت مرة احدى عشرة دودة غينيا من مريض
واحد .

وقد لا يتمكن المريض احيانا من انتزاع الدودة بكاملها
واذكر مرة لاحظت خلالها شيئاً يتحرك تحت جلد ذراع مريض
كان ممدداً على طاولة العمليات ينتظر بدء الجراح باجراء
العملية . وحالما تم تخدير المريض قمت باحداث شق بسيط في
ذراعه واخرجت دودة غينيا كاملة . وتقبع هذه الدودة الآن في
وعاء في احد المتاحف .

* برغوث الماء حيوان مائي ذو عين ضخمة متوسطة الموضع هي في
الواقع عين مزدوجة (المترجم) .

أما حالات الإصابة بدودة غينيا في البحرين اليوم
فمنتشرة بين الاغراب ، خاصة من بلاد فارس . وقد ساعد
اكتشاف البثر الارتوازي على قهر هذه المشكلة في البحرين ،
لان عدم ابتلاع الناس لبراغيث الماء اثناء شربهم يحول دون
وصول دودة غينيا اليهم ، ولان برغوث الماء لا يستطيع
الوصول الى منابع الآبار الارتوازية على عمق مئات الاقدام .
وبخروج براغيث الماء من الصورة تكسر الحلقة ويقهر المرض
وينتهي انتشاره . ويبقى فقط المرضى الذين يحملون المرض
ويحتاجون الى علاج .

ولدي سبب وجيه يذكرني بأحدى الجراحات الاولى التي
قمت بها . وكانت العملية تتعلق بمرض قدم مادورا Madura
foot ، وهو مرض محزن يسببه نوع من الفطر يبدأ بالجلد
ويتجه الى اسفل الجسم والى داخله حتى يحول كل الانسجة
الى مجموعة من الانفاق والجيوب المليئة بالقبيح ذي الرائحة
الكريهة . وقد وصل المريض من ساحل القراصنة يصحبه ستة
رجال اشبه بالمتوحشين مدججين بالخناجر والبنادق
والمسدسات . ولم يتخل اولئك الرجال عن سلاحهم لحظة
واحدة ، واعتقد انهم يشعرون بانهم عراة بدونه . وعندما
أخبرتهم انه يجب قطع قدم المريض وافقوا فورا . وقالوا ان
هذا ما جاءوا من اجله ، وان علي قطعها فورا . وشرحت لهم
ضرورة ترتيب بعض الامور ايضا فوافقوا على مضض فالعربي
متسرع وفوري ويكره الاستعداد او التحضير لاي امر .
« فالقدر » يقرر مصير الناس والاشياء في هذا العالم . وليس
على الانسان الا الاستسلام لذلك المصير .

وعندما حل موعد اجراء العملية كان اصحاب المريض
هناك بكامل اسلحتهم . وكانست تلك تجربة مخيفة بالنسبة

لجراح مبتدئ مثلني ، ولكن العملية سارت بنجاح ولم تكن هناك حاجة لاستعمال السلاح . وقد تساءلت كثيرا فيما بعد عن كيفية تصرفهم تجاهي فيما لو مات المريض اثناء العملية ، او في حال حصول خلل رئيسي في غرفة العمليات . ربما كانوا لن يفعلوا شيئا ، ولكن لا سبيل الى التأكد من صحة هذا الافتراض .

كان يحكم البحرين في تلك الايام الشيخ عيسى بن علي آل خليفة المشهور الذي كان قد نصب كشيخ للبلد عام ١٨٦٧* وكان حينها رجلا متقدما في السن ذا لحية بيضاء . وقد كنت زاياء صديقين حميمين ، وغالبا ما كان يستدعيني لمعالجته ومعالجة المقرين منه . وقد باعني ارضا كبيرة خلف مستشفى ماسون التذكاري* بقيمة ٤٠٠ روبية، وهذا سعر رمزي طبعا . وربما تساوي هذه الارض ١٠٠.٠٠٠ روبية اليوم . وقد منحني مساحة اضافية ملحقة بمنزلي ، مكنتني من اقامة ملعب للتنس في الجانب الظليل من المنزل . وكان دائما كريما في مكافاتي على خدماتي ، واعطاني العديد من اكياس الروبيات الفضية ، التي حولتها لقتعيم وضع المستشفى المالي .

* نصب الشيخ عيسى بن علي آل خليفة حاكما للبحرين سنة ١٨٦٩ (المترجم) .

* مستشفى ماسون التذكاري هو مستشفى الارشالية الامريكية في البحرين ، وما زال قائما في نفس المكان في النامة (المترجم) .

الكويت عام ١٩١١

زرت الكويت لأول مرة في يوليو (تموز) عام ١٩١١ .
فما الدافع لهذه الزيارة ؟ كنا ندرك لسنين عديدة ، وفي الواقع
منذ انشاء الارسالية العربية الامريكية، ان الكويت مدينة ذات
اهمية استراتيجية عظيمة . فهي بموقعها ما بين العراق في
الشمال والاحساء في الجنوب تسيطر على رأس الخليج
« الفارسي » وتتمتع بميناء ممتاز ، ربما كان الميناء الطبيعي
الممتاز الوحيد على الساحل الشرقي للجزيرة العربية .

وقد كانت الكويت ، حتى عام ١٩١٨ ، البوابة الكبيرة
لنجد والداخل . وكانت قوافل الجمال الكبيرة تنطلق منها
باستمرار وهي تحمل منتجات العالم الى اسواق الرياض
وبريده وعنيزة وشقراء . فقد كانت كل المواد والبضائع التي
يحتاجها العربي في الداخل ، مثل الكاز والثقاب والاولوان
المعدنية والساعات ، تصله عبر الكويت .

وكانت الكويت ايضا مركزا عظيما للغوص بحثا عن
اللؤلؤ، وكان فيها عام ١٩١١ ثمانمئة مركب يعمل على ظهورها
٢٠٠٠ رجل يعملون في مجال الغوص . ولم يكن كل هؤلاء
مواطنين كويتيين ، فقد جاءوا من كل حـدب وصوب . ولكن

بناء المراكب واعدادها وتموينها لرحلات الغوص يتم في هذه المدينة الكبيرة ، بمينائها الممتاز . وكان يجري فيها تنظيم كل ما يتعلق بعملية الغوص بحثا عن اللؤلؤ .

وكانت مراكب الغوص تشكل جزءا هاما من قوة الكويت البحرية ، ولكنها تعتمد بدورها على الاسطول الرائع من البواخر المبحرة باتجاه الهند وحتى زنجبار للمتاجرة حاملة التمر من البصرة وعائدة بالاخشاب والقهوة من ملابار ، والبضائع المختلفة من بومباي ، والارز من كراتشي ، واعدة للسفوف من شرقي افريقيا .

وكان النشاط الساحلي كبيرا ايضا . فقد كان هناك اسطول كبير من القوارب الصغيرة يتولى امر التجارة الهامة مع موانئ الخليج «الفارسي» . واذا اضفنا الى ذلك اسطول صيد الاسماك والسفن التي تبحر ما بين الكويت وشط العرب لتزويد الكويت بمياه الشرب ، يتجمع لدينا اسطول كبير من السفن .

ويبلغ طول ميناء الكويت ثلاثة أميال وقد بنيت على طول هذه المسافة ارسفة ممتازة يمكن للسفن المبحرة الرسو فيها في مختلف الاحوال الجوية . ولولا هذه الارصفة لكان النشاط البحري في الكويت مستحيلا ، لان الساحل مفتوح أمام كل الرياح ، وأمام الامواج العالية التي تحركها هذه الرياح .

ويبلغ علو المد ١٢ قدما على ما اعتقد . وهذا يعني ان السفن تكون مرتفعة وجافة اثناء الجزر مما يجعلها في وضع مثالي للتنظيف والتزيت واغلاق الشقوق . والسفن الكويتية ذائعة الصيت في الخليج « الفارسي » ، ولا يجارى صانعوها في المهارة . ونادرا ما يقوم صانعو السفن بوضع رسومات

ومخططات لبنائها ، وكانت خطوطها وتناسقها وانحرافها
العلوي طويلا (من وسط السفينة الى كل من طرفيها)
من الدقة بحيث تصل الى درجة الروعة والاتقان .

وكانت الكويت عام ١٩١١ مدينة طويلة وضيقة مبنية على
المشاطيء الجنوبي لخليج الكويت ، يتراوح عدد سكانها آنذاك
بين اربعين الى خمسين الف نسمة . اما طول الكويت في تلك
الايام فكان مليون ونصف . وكانت المدينة كلها عربية . وحتى
الحمالين كانوا عربا .

وكان يرأس البلد الكهل العظيم الشيخ مبارك الصباح .
فهو صانع الكويت الحديثة ، وهو رجل يتمتع ببعده الرؤيا
والمقدرة الكبيرة . وكانت تساعد حكمة قديرة وكان النظام
والهدوء سائدين ليلا ونهارا ، وقد امتد نفوذ مبارك الى
المصحراء . وكان شيخ العشيرة الحقيقي .

ويدين الملك ابن سعود العظيم بالفضل في تدريبه المبكر
للشيخ مبارك ، لانه امضى حداثته في الكويت . وقد احب
مبارك ذلك الشاب الصغير وقام حتما ببلورة شخصيته في تلك
الفترة الهامة من حياته . ولا نبالغ اذا قلنا انه لولا مبارك لما
تمكن ابن سعود من ان يصبح الشخصية التاريخية القادرة
والذي يعترف الجميع اليوم بانه كان اعظم عربي منذ ايام
الخلفاء الراشدين .

وما زلت استرجع صورة مبارك باعجاب عظيم . وكانني
به على الشرفة جالسا في مجلسه ، والبحر الى يساره وكبار
رجال المدينة الى يمينه في صف طويل يبلغ ثلاثين رجلا احيانا ،
يقف قبالة مسؤول خمسون حارسا مسلحا لا يدع
انضباطهم العسكري مجالا للشك بولائهم المطلق وطاعتهم
العمياء للشيخ مبارك .

وكان مبارك في الواقع يمسك مصير الكويت بيده . وكان نحيفا ، وكانت عيناه ثاقبتين تخترقان محدثيه ، وتمكنانه من الحكم عليهم بدقة ، وكان وجهه قويا يعكس قوة الارادة والتصميم ، كان وجهه وجه قائد بالسليقة . وكان بعيد النظر يستبقي رعاياه في النظر الى المستقبل ، يلسم بالشؤون العالمية بشكل مدهش في ذلك الوقت . وقد كان مبارك محظوظا بالرجال المحيطين به - ارستقراطيين من افضل العرب - اذ كانوا يعرفونه حق المعرفة ويثقون به .

وقد حكم مبارك الكويت بيد حديدية . وكانت كلمته قانونا ولم يكن يسمح لاي من رعاياه بالاحتفاظ بعربة او حتى يجواد للركوب . اما المستنون او المقعدون فكانوا يركبون حميرا متواضعة . وكان الاستثناء الوحيد لهذه القاعدة نقيب البصرة ، السيد رجب ، الذي كان صديقا حميما لمبارك والشخصية الكنسية الرئيسية في البصرة (وكبير كهنة البصرة) . وكان النقيب - في مناسبات خاصة فقط - يقود عربة فخمة يجرها حصانان . وهكذا فقد كان مبارك « يكرم الكنيسة اكثر مما يكرم الدولة » ولكن النقيب كان يمشي في معظم الاوقات .

وكان من عادة الشيخ مبارك ان يقوم بجولة رسمية في السوق بعد ظهر كل يوم ، حيث يركب عربة جميلة من طراز « فكتوريا » يجرها حصانان بديعان ، ويسير بتهمل عبر الاسواق ، ويتوقف امام المقهى القديم (الذي هدم الآن) لعقد مجلس رسمي . وكان حفيده الصغير صباح يجلس على يساره في العربة وهو يرتدي الثياب المزركشة بالذهب التي كانت تضيء الروعة على المركب . وكانت وفاة مبارك في يناير ١٩١٦ كارثة بالنسبة للكويت .

وهناك حقيقة اخرى حول مبارك من الجدير تسجيلها ،
وهي انه كان متعاليا . فقد كان هناك بيتان او ثلاثة بيوت فقط
يزورها مبارك او يقبل دعوتها للطعام . لكنه مع ذلك لم يكن
معزولا عن رجل الشارع او عن البدو في الصحراء . فقد كان
بمقدور اي انسان له قضية او مشكلة او طلب ان يقابله بدون
مشقة .

وكان يوجد خلف المدينة وبعيدا عن البحر الخلاء
الكبير حيث تتجمع قوافل الجمال المنطلقة الى الصحراء
والقادمة منها . وكان يجري اعادة تصدير جزء كبير من
البضائع القادمة من الهند الى نجد والداخل .

ومن المشاهد الاعتيادية في تلك الايام رؤية خمسمئة
جمل رابضة في «الصفاء» وكانت اهمية الكويت التجارية تبدو
جليية حتى للزائرين . وقد تجمع في ساحة الصفاء ذات مرة
الف جمل .

ويحمي مدينة الكويت اليوم من جهة الصحراء سور عال
اه اربعة ابواب كبيرة وعليه ابراج حراسة * . وقد بني هذا
السور في صيف ١٩٢٠ اثناء تولي الشيخ سالم بن مبارك
سدة الحكم ، وفي وقت كان يتهدد الكويت خطر غزو سعودي
يشنه قائد القوات السعودية فيصل الدويش . وقد سالت مبارك
ذات مرة لماذا لم يبن سوراً حول عاصمته . وكان جوابه
كافيا وواقعا اذ قال « انا السور » .

ما قلته للآن يعتبر مقدمة غير مكتملة للكويت في الرابع

* جرت ازالة السور على اثر التوسع الذي شهدته المدينة بعد ظهور
النفط .

من يوليو عام ١٩١١ . وصلت قادما من البحرين على ظهر
مركب يصحبني طباطبي الغاني المخلص والقدير . وكان وصولي
في منتصف الصيف حيث الطقس حار جدا ، وكان مفروضا
على كل الركاب البقاء في الحجر الصحي للوقاية من مرض
لا اذكره الآن . وقد سارع الممثل السياسي البريطاني ،
الكابتن و. هـ. اى - شكسبير ، الى انقاذي باصراره على ان
امكث وخادمي معه طيلة مدة الحجر . وقد اكد للسلطات اننا
لن نغادر منزله قبل انتهاء تلك المدة . وقد كان الكابتن شكسبير
احد الشباب البارزين في زمنه ، وكان موته في الصحراء عام
١٩١٦ خسارة كبيرة لحكومة صاحب الجلالة * .

* قتل الكابتن شكسبير وهو في معية عبد العزيز بن سعود في
احدى غاراته ، سنة ١٩١٦ . وقد كان كاتباً بجائته له عدة مقالات
منشورة عن جزيرة العرب (المترجم) .

تأسيس أول مستشفى في الكويت

كانت الارسالية العربية الامريكية ترغب ، قبل زيارتي للكويت عام ١٩١١ بسنتين ، في انشاء فرع لها في الكويت . وقد زارها زويمر وجيمس مورديك ولكن الشيخ مبارك منعهما من البقاء طويلا فيها . ولم يسمح لشارون تومس كذلك بمغادرة السفينة والنزول الى اليابسة .

وكان يوجد منذ مدة ، في الخزينة في نيويورك مبلغ من المال مخصص لافتتاح مستشفى في الكويت . وقد قدم اقتراح اثناء الاجتماع السنوي للارسالية عام ١٩٠٩ ، حسبما اذكر ، يطلب من المجلس الاتصال بالمتبرع لاقناعه بتحويل المبلغ المخصص للكويت الى بلد آخر . ويسرني القول ان الاقتراح قد رفض .

وقام ارثر بينت ، رئيس وحدتنا الطبية في البصرة بعد هذا الاجتماع بوقت قصير بزيارة بلدة تدعى «الحمرة» وهي تعرف الان باسم «خورامشهر» . وكانت هذه البلدة مقر اقامة

.....

* من المعروف ان خزعة زعيم عربي ، حكم عريستان حتى بعد الحرب العالمية الاولى (المترجم) .

وقيادة الزعيم الايراني القومي خزعل * . وكان مريضا بالسكرى حيث كان بينت يعالجه . وكان يزور خزعل فسي ذلك الحين كل من الشيخ مبارك والسيد رجب من البصرة . وقد كان خزعل والسيد رجب يحترمان بينت ويقدرانه ، فحدثا الشيخ مبارك عنه . وطلب مبارك من بينت الذهاب الى يخته لفحص احدى بناته الصغيرات التي كانت تشكو من ألم في عينيها . ووافق بينت بالطبع ، وكشف على البنت ثم أجرى لها عملية جراحية . وقد تماثلت البنت للشفاء وسر مبارك بذلك كثيرا .

وقام بينت بعملية اخرى اكسبتنا الشهرة . فقد كان احد ابناء السيد رجب يعاني من تورم في العنق ، وقد ارسله والده الى الهند حيث فحصه عدد من الاخصائيين ورفضوا اجراء عملية جراحية له . وقد عرضه والده على بينت الذي نصح باجراء جراحة له . ووافق والده على اجراء الجراحة ، واجرئ بينت الجراحة بنجاح وازال التورم وكان المريض ما يزال حيا في يوليو عام ١٩٤٩ .

وقد اصبح بينت صديقا حميما للسيد رجب والشيخ مبارك بالاضافة الى خزعل طبعا . واصبح هؤلاء الرجال الثلاثة الاقوياء والنافذون ميالين الى فكرة افتتاح مستشفى

للارسالية الامريكية في الكويت . وقام بينت ، في هذه الاثناء بزيارة الكويت عدة مرات وترك انطبعا جيدا هناك . وكان لديه مساعد كفاء - عراقي مسيحي - تركه في الكويت للاشراف على مستوصف واجرء الاسعافات الاولى .

وطلب الشيخ مبارك من الارسالية الاميريكية اقامة

مستشفى في عاصمته • وقد ارسلت لجنة مؤلفة من جون فان اس وارثر بينت لمفاوضة مبارك حول موقع مناسب للمستشفى • ونتيجة لهذه المفاوضات امتلكت الارسالية قطعة ارض مساحتها ٢٧٠ × ٣٠٠ قدم • وكانت هذه المساحة نواة ملكيتنا الحالية الضخمة* •

وحالما باعنا مبارك الارض ، اصر على قيام الارسالية بايفاد طبيب مقيم • ولكن كل ما استطعنا عمله كان اقتسام السنة فيما بين بنيت وهاريسون وبينني • وبناء على هذا الاتفاق كان علي أن اقضي جزءا من صيف عام ١٩١١ في الكويت •

وبعد ان تركت عملي في البحرين ووصلت الى الكويت اكتشفت عددا من الامور فبينما كان الشيخ مبارك يرغب في وجودنا ، كان غالبية السكان بمن فيهم العائلات الكبيرة - يعارضون تماما سياسة السماح للمبشرين المسيحيين بالاقامة في مدينتهم • فقد كان استدعاء طبيب من البصرة لمعالجة احدى الشخصيات الهامة امرا مقبولا ، اما اقامة مستعمرة للمبشرين المسيحيين في المدينة فكانت امرا مرفوضا رفضا باتا •

الا ان مبارك ظل ودودا نحوي ، يستقبلني بحفاوة عند كل زيارة اقوم بها له • وبالإضافة الى رفض المدينة لوجودنا فقد كان «الاجانب» يعتبرون ظاهرة غريبة في الكويت عام ١٩١١ • وكان الجميع متشوقين لرؤية مظهرنا • وكانت هذه

* وضعت وزارة الصحة الكويتية يدها على هذا المستشفى ، وهو تابع لهذه الوزارة الان (المترجم) •

التجربة جديدة بالنسبة لنا لان وجود الاجانب في البحرين كان امرا مألوفاً ، اما هنا فقد كان يضايقنا لحاق الناس بنا في الشوارع ، وهم يوجهون لنا الكلام اللاذع ، ويلقون علينا بالحجارة بين الفنية والاخرى . وقد شعرت بجرح عميق وباهانة لكبريائي عندما ادركت انني اعتبر كافرا في الكويت . وتجدر الاشارة الى ان الفضولية والفضاظة كانت تبدر عن رجل الشارع (والاولاد) فقط .

اما ابناء الطبقات العليا فكانوا متحفظين ومتكبرين ، ولكنهم لم ينزلوا أبداً الى مستوى الابتذال الرخيص كعامية الناس . وقد حافظ هؤلاء على اخلاقهم الحميدة وتأديبهم ولطفهم حتى وان كانوا يكتبون كرههم لنا . وكان عدد ضئيل منهم فظلين معي .

وقد سكنت ذلك الصيف في احد البيوت العديدة غير المنظمة التي كانت تشكل قصر مبارك . وكان هذا البيت قد أعطي للدكتور «بول هاريسون» من قبل . وكان خالياً تماماً من وسائل الراحة ، وحاراً جداً في الصيف . ولكن لا شك لدي بأن مبارك كان يعتبره بيتاً ممتازاً لانه احد بيوت قصره .

وقد أجرى بول هاريسون عدة عمليات جراحية ، وادى خدمات طبية جلييلة في الكويت ، وقام باعداد مستوصف بسيط من ثلاث او اربع غرف ، احداها غرفة عمليات طولها عشرة اقدام وعرضها ستة اقدام . وكانت طاولة العمليات هي قطعة الاثاث الطبي الوحيدة لانه اخذها من مستشفى الاسرائيلية في البصرة . أما خزانة المعدات الجراحية فكانت عبارة عن صندوقين خشبيين جرى ضمهما بطريقة مرتجلة . ولكن العبقرية ، كالعادة ، انتصرت على كل العقبات واجرى

هاريسون عدة عمليات رئيسية وعددا من العمليات البسيطة .
وكانت مقدرته تنتزع اعجاب الجميع بالرغم من انه كان في
بداية تجربته العملية .

وقد سررت بوجود القس ج . ج بنينكز في الكويت ، وكان
قد وصل اليها قبلي ببضعة اسابيع ، لانه صديق عزيز على
هاريسون . وقاما معا بكسب حلقة واسعة من المعارف
والاصدقاء . ومن حسن حظي انني شاركت في هذه الاتصالات
وكنت اقضي امسياتي في زيارة المعارف والاصدقاء برفقة
السيد بنينكز . وقد ساعدني ذلك كثيرا في عملي .

ولكن السيد بنينكز غادر الكويت بعد اسبوع من وصولي
وبقيت وحيدا . وكنت الاجنبي الوحيد في الكويت خلال
فترة اقامتي لان الكابتن شكسبير ، المعتمد السياسي ، كان
خارجها . وكانت تلك تجربة قاسية بالنسبة لي لانني كنت
اقضي اياما دون ان اتكلم الانجليزية . وقد تحسنت لغتي
العربية ، ولكنهم كانوا يقولون لي انني اتكلمها بلهجة
بحرانية واضحة .

كانت قطعة الارض التي باعنا اياها الشيخ مبارك تقع
في الطرف الغربي من حدود المدينة ، على بعد ميل وربع
من مكان سكني . وكنت امشي اليها مرارا حيث اجلس فوق
التلة وهي علامة بارزة في المكان . واحاول ان ارسم في ذهني
ترتيب المباني التي كنت آمل بان تشاد يوما ما . وكانت حدود
قطعة الارض طريفة ، اذ كانت عبارة عن اكوام من الحجارة
الملقاة بشكل كيفي وحسب همة خدم الشيخ ، وبالتالي بدل
ان تكون مستطيلة بدت مسبعة الجوانب . وسأتحدث أكثر حول

الثلة وحدود قطعة الارض فيما بعد . وقد قررت ان يبنى
مسكن الطبيب فوق الثلة .

وكنيت في هذه الفترة افصح العيادة يوميا ، باستثناء
ايام الاحد ، وكنيت اظل مشغولا جدا . وكنيت اقيم قداسا ايام
الاحاد لمساعدتي القلائل ، ولمن يشاء ان يستمع . وكان الامر
الموحد الذي يثير مخاوفي هو تأخرنا في بناء المستشفى لانني
كنت اعلم ان الشيخ مبارك قد بدأ يتعلم من تأخرنا في تنفيذ
وعدنا . وكان التأخر يرجع الى عدة اسباب لا داعي لشرحها
هنا .

وقد عدت الى البحرين ثم سافرت الى امريكا في اول
اجازة لي في ربيع عام ١٩١٢ . واثناء وجودي هناك ، تم
ارسال السيد والسيدة اي . اي كالفرلي والدكتور بول
هاريسون الى الكويت .

وبدأ العمل في بناء المستشفى الجديد . وكان المستشفى
اول مبنى من الحديد والاسمنت يقام في الكويت . وتولى
المشروع مهندسان اميركيان شابان من ان اربور ، ميتشيغان
جاء الى البصرة بهدف المتاجرة .

وقد عرضا خدماتهما على الارسالية فتقبلناهما شاكرين
وقاما برسم الخرائط وتشييد المستشفى .

وحال وصولهما الى الكويت طلبا الاطلاع على نص عقد
الشراء فوجدوا ان قطعة الارض يجب ان تكون مستطيلة ،
٣٠٠ x ٢٧٠ قدما . وبعد ان شاهدوا الحدود التي اقامها

رجال الشيخ ادركا انه لا علاقة بين تلك الحدود وبين المقاييس المتفق عليها في العقد . وقاما بتحديد قطعة ارضا بعناية وشيدا زاوية من الاسمنت في كل زاوية من زواياها . ولسو انهما اخبرا الشيخ مبارك بما سيفعلانه قبل ان يباشرا العمل لامكن تجنب الكثير من المتاعب .

وحال عودتي من اجازتي توقفت في البحرين لجمع حاجاتي واثاث منزلي ثم انتقلت الى الكويت . وكان قد مضى اكثر من عام على وجود السيد والسيدة كالفري والدكتور هاريسون هناك ، وكانت الارسالية قد استقرت . وقد مارس السيد كالفري (الان دكتور) دور القس والسيدة كالفري دور الطبيبة النسائية ، والدكتور هاريسون دور الطبيب الرجالي وكانوا يعيشون في بيوت عربية في وسط المدينة . وكان هاريسون يسكن في المنزل الذي سكنه عام ١٩١١ ، والذي اصبح فيما بعد مستشفى . وكانت السيدة كالفري (الدكتورة اليانور) تستعمل هذا المنزل للخدمات الطبية ايضا . كما استأجر آل كالفري منزلا سكنيا لهما على بعد ربع ميل - وكان منزلا مريحا جدا .

وقد حصلت انا وزوجتي على بيت جديد بطريقة فريدة وقامت الارسالية باستئجاره لمدة ثلاثين عاما . كان صاحب البيت قبطانا بحريا عربيا ثريا قتل فيه امرأة ودفنها في باحة المنزل . وقد القي القبض على القبطان واعترف بالجريمة ونفي من الكويت . واستولى الشيخ على منزله . وهكذا اصبح الشيخ صاحب العقار الذي اسكنه . وكان البيت فسيحا وحسن البناء ولكن رفض اى عربي استئجاره فقد ارتكبت فيه جريمة . وكان منزلا مدنسا ، لا يتمكن المسلم

المؤمن من الصلاة فيه . وحينما عرض علي استنجاره بسعر معقول رضيت بذلك ، وعشنا فيه سنة . وبعد ان اخليناه في اكتوبر عام ١٩١٤ ، اصبحت مدرسة السيد كالفري ومسكنا لاحد بائعينا المتجولين . وقد تم العفو عن صاحب المنزل منذ بضع سنين واعيد اليه منزله . وقد حاولت عدة مرات ان اشترى هذا المنزل من الشيخ مبارك ، ثم من الشيخ جابر ثم من الشيخ سالم ثم من الشيخ احمد . لكن الشيوخ رفضوا بيعه لي بحجة ان ماله سيرجع يوما ما . ولم استطع ان اكتشف السر وراء هذا المنطق .

وهكذا نشأت صداقة بيننا وبين ال كالفري استمرت ١٥ عاما كان عملنا خلالها مزدهرا وناجحا .

وبعد ان عرفنا الناس حق المعرفة اختفى الفتور والعداء الذي كنا نقابل به لتحل محلهم الصداقة والثقة . وقد احتجنا الى جهد ووقت لاكتساب هذه الصداقة والثقة .

وبعد وصولي الى الكويت غادرها هاريسون الى بلد اخر ، ووقع علي عبء تنظيم مؤسسة طبية دائمة . وكان اول امر يجب انهاءه هو بناء المستشفى . وقد شيد الاطار الفولاذي للبناء ، ورفع سقفه وصبت ارضيته بالاسمنت . وتم حسب مستوى الارضية بشكل مغلوط مما استدعى اعادة صبها . وقد ابلغنا المهندسان المشار اليهما سابقا بأن مسؤوليتهما انتهت بانتهاء تشييد الاساسات والاطار الخارجي وان علينا نحن الهواة - كالفري وانا ان نتم تشييد المبنى .

وقمت بتفحص الحدود الجديدة لقطعة ارضنا فوجدت انها قد استبعدت ثلثي التسلية خارجها . واصبحت بخيبة

امل لانني كنت انوى بناء منزل الطيب فوقها . وكنت مستعدا نسبيا لتلقي هذه الصدمة لان كالفري كان قد كتب لي قائلا بانه قد اعيد قياس قطعة الارض ، ولكن رؤية التغيير كانت قاسية علي كما لو انني لم اتوقعه .

وقد سألت كالفري : «الا تعتقد ان الشيخ مبارك يعطينا قطعة الارض هذه ؟ فهي لن تفيد احدا ، اذ لن يقوم اى عربي ببناء منزل فوقنا» .

واجابني كالفري بان التعامل مع مبارك قد اصبح صعبا لانه يعتقد اننا خذلناه ، وبالتالي فهو لن يقدم لنا اية خدمات . كان ذلك الجواب خرية لي . ولكنني استجمعت شجاعتي وزدت الشيخ مبارك بعد ظهر اليوم نفسه . وكان الشيخ في مجلسه وقد بدا مكفهر الوجه ومتحفظا ، لكنسه استقبلني بحفاوة كافية .

وبعد تناول القهوة والسجائر والتبادل حديث عام قصير سألته ببساطة : الم تكن تفكر باعطائنا التلة كلها من ضمن قطعة الارض التي بعتنا اياها ؟

وسألني باستغراب : «ماذا تعني ؟»

عند ذلك اخبرته القصة ، وشرحت له ان المهندسين اضطروا الى اعادة قياس الملكية لكي تتفق مع المساحة المنصوص عليها في عقد المبيع . وانفجر مبارك قائلا : «ماذا ؟ هل تقصد انكم غيرتم حدودي - حدودي انا . اسمع يا حكيم ان صبري قد نفذ . لقد مضى اكثر من ثلاث سنوات على بيعي تلك الارض لارساليتكم . وقد وعدتم حينئذ ببناء

مستشفى وارسال طبيب • ولم يتم بناء المستشفى بعد والله وحده يعلم متى سيتم • اما الاطباء فيأتون ويذهبون ، ولا اعلم كم ستمكث انت ، والان تأتي لتخبرني بان حدودي قد غيرت وانني افكر جديا بالغاء كل الامتيازات التي اعطيتها لكم وبإخراجكم من الكويت •

وابلغني ان الجلسة قد انتهت • وشعر الحاضرون في المجلس ، بمن فيهم الحرس ، بتكهرب جو المجلس ، فسارعت بمغادرة المكان •

يوجد عرف هام في القانون السياسي يقول «يجب الا تغير موقع او تزيل علامة حدود جارك • وملعون من يزيح حدود جاره» • وكان هذا عرف له مكانته في الجزيرة العربية •

وكنت كئيبا حين وصلت الى منزلي واخبرت زوجتي بنتيجة المواجهة التي كنت اتوقع من ورائها الكثير • ولم يكن هناك في المدينة من الجأ اليه طلبا للمساعدة ، وكنت اذرع غرفتي جيئة وذهابا في الليل افكر في كيفية الخروج من هذا المازق • وفعلت الامر الوحيد الذي بامكاني ان افعله • فقد داومت على زيارة الشيخ بانتظام دون ان تحون لدي الشجاعة على اعادة فتح الموضوع • وكان الوقت يمر وقصل البناء يقترب • وكانت ميزانيه بناء منزل للطبيب متوفرة ، وكنت تواقا لبدء البناء • وكان من المستحيل ، طبعاً ، القيام باية خطوة قبل انتهاء المسألة مع الشيخ • ولم نجرؤ حتى على اتمام العمل بالمستشفى وظل العمل متوقفا تماما •

واخيرا قررت ان اجابه الموضوع وقد سألت الشيخ مبارك اثناء احدى زياراتي الدورية «هل بامكاني ان اكلمك

في موضوع هام جدا ؟ » وهز رأسه موافقا ، فتأبعت « : أنك تدرك بلا شك يا صاحب السمو ان اهالي الكويت يعتبرون الارسالية مذنبه لانها اخذت ارضا لا تخصها . وهذه تهمة خطيرة . فاذا كانت التهمة صحيحة يجب معاقبة الارسالية ، واذا لم تكن فعلى سموك ان تقول ذلك علنا . ولدي اقتراح بان تقوم سموك بزيارة قطعة ارضنا لكي يجري قياسها علنا وفي حضورك » .

وابتسم مبارك - وكان قد مضى وقت طويل لم اره فيه مبتسما - وقال ان الفكرة جيدة وانه سيزورنا . وطلبت منه تحديد موعد فاعطاني موعدا بعد ظهر بضعة ايام . وتركت مجلسه وانا اشعر بارتياح لم اعده منذ اسابيع وسارعت لاجبار كالفري بالامر .

وانتظرت انا وكالفري طوال بعد ظهر اليوم المحدد لزيارة الشيخ مبارك لكنه لم يحضر . وعندما زرته وذكرته بوعده ابتسم وقال « كلا لم احضر » . ووعدنا بالزيارة ثلاث مرات وخيب املنا ثلاث مرات ، وعندما وعدنا للمرة الرابعة سألته : هل ستأتي حقا ؟ فهذا رابع موعد تعطينا اياه ، اجابني بحزم انه سيحضر هذه المرة ، وشعرت اننا سنراه عندنا فعلا .

وقد شعرت اثناء هذه المفاوضات المزعجة بان وجود المعتمد السياسي البريطاني سيكون مفيدا اثناء عملية قياس الارض . فهو سيكون شاهدا محايدا ومقبولا من جانب الشيخ مبارك ومني . واتصلت بالمعتمد السياسي ، الذي كان مسيحيا رائعا وصديقا عظيما للارسالية وطلبت منه حضور « عملية التكيل » رسميا وتسجيل النتيجة في ملفات مكتبه . وقبل الدعوة فوراً .

وفي اليوم الموعد ، ٩ فبراير عام ١٩١٤مطرت السماء
فقلت لكالفربي «انه يوم ممطر ولن يحضر الشيخ» . ومع
ذلك خرجت معه الى قطعة الارض وانتظرنا طويلا . وما ان
كدنا نفقد الامل حتى ظهر موكب فخم . وكان يتقدم الموكب
ثلاث عربات في الاولى الشيخ مبارك ، وفي الثانية ابنه الاكبر
الشيخ جابر ، وفي الثالثة المعتمد السياسي البريطاني .
وخلف العربات كان هناك عدد من شخصيات الكويت ، على
خيول مبارك ، وخلفهم حشد من الفضوليين والاولاد .

ونزل مبارك من عربته بتمهل يتبعه ابنه والمعتمد
السياسي البريطاني . وترجل المدعون عن خيولهم ، وصعدوا
النتلة سيرا على الاقدام حيث كنت وكالفربي في استقبالهم
وقد رد الشيخ تحياتنا لكنه بدأ صارما وعابسا . ولم يكن
ذلك مشجعا . واقترب رجلان من الشيخ وطلبا منه الموافقة
على عصا القياس التي سيستعملانها . وكانت وحدة القياس
الرسمية في هذه الايام هي الذراع . والذراع يعادل ١٨
بوصة . وتم وضع عصا القياس باحترام على ذراع الشيخ
فوافق عليها . والذراع وحدة قياس قديمة جدا ، وجاء
ذكرها في كتاب ديتوروموني « ذراع الرجل » (ديتورموني
٢ : ١١) .

وتم قياس قطعة الارض وسط سكوت تام وتحت رذاذ
المطر . وقد استغرق القياس اكثر من ربع ساعة . وكنت
قريبا من مبارك لدرجة استطلعت معها سماع النتيجة . كان
طول القطعة ١٩٩ ذراعا وعرضها ١٧٩ ذراعا ، اي
ذراع واحد اقل مما نص عليه العقد في كل جانب من
المستطيل . وعندئذ حدث امر هام جدا ، اذ استدار نحوي
مبارك وهو يبتسم وقال لي « ان القياس صحيح » .

وتمتت كلاما فحواه انني كنت احاول ان اقول له ذلك منذ اسابيع . وقال لي « انتظر » ، ثم اشار الى الحاضرين بانه سيخطب فيهم .

وكانت فحوى ما قاله : يا رجال الكويت ، لقد دعوتكم اليوم لمناسبة خاصة جدا . انتم تعلمون انني مرتبط بمعاهدة مع الحكومة البريطانية تمنعني من تأجير او بيع اي جزء من اراضي لاجانب بدون موافقتها ، انتم تعلمون انني التزمت بهذا التعهد التزاما تاما ولم اعط جزءا من اراضي لاجانب الى ان قمت ببيع قطعة الارض هذه للارسلانية الاميركية ، وبعد موافقة حكومة صاحب الجلالة ، وكما يذكر العديد منكم انه منذ وقت ليس ببعيد كان الالمان تواقين الى الحصول على قطعة كبيرة غرب الكويت من اجل تدعيم خططهم الطموحة . ولم يحصلوا على بوصة واحدة . وانا اسأل نفسي اليوم من هم هؤلاء الناس الذين يعتهم قطعة الارض التي نقف عليها ؟ هل هم سياسيون ؟ كلا . هل هم مؤسسة تجارية ؟ كلا . لماذا حضروا الى هنا ؟ لقد حضروا لتعليمنا ، والله يعلم اننا بحاجة الى تعليم . لقد حضروا لكي يبنوا مستشفى ويعتنوا بمرضانا لقد حضروا لاداء خدمة لنا . والان يريد الطبيب ان اعطيه شيئا . وانا لا اعلم ما الذي يريده ، لكنني ساعطيه اياه مهما كان .

والتفت نحوي وسألني : ما الذي تريده يا دكتور ؟ « واجبته » ، يا صاحب السمو اريدك ان تعطيني كل هذه القلعة . وقال « حسنا ، سيحضر رجالني الى هنا غدا صباحا عليك ان تخبرهم بالحدود التي تريدها » .

ولن انسى اشراقة وجه كالفرتلي وهو يقول لي : « يا ماليري ، لقد اعطانا اياها » .

وحضر رجال الشيخ وقاموا برسم الحدود حسب تعليماتي .

وبعد ايام بدأت وكالفرلي ببناء منزل الطبيب الذي قدر لي ولزوجتي ان نسكنه سبعة وعشرين سنة . وكان ذلك انتصارا عظيما لنا ، وتغيرت مواقف شخصيات المدينة منا ، فقد سارعوا الى تبني موقف حاكمهم .

واصبحت انا ومبارك صديقين حميمين ، وقام باعفائنا من كل الرسوم الجمركية ، كبادرة من عدة مبادرات ايجابية تجاهنا . وقد جرى اختبار الاعفاء بعد اعطائنا له بوضعة اسابيع . فقد وصلتنا شحنة كبيرة من اثاث ومعدات المستشفى - هدية من فرانك ر . تشامبرز من نيويورك وهو الذي مول بناء المستشفى ايضا . وبعد وصول الشحنة وصلني بيان جمركي من مدير الجمارك يطالب فيه برسوم جمركية وايجار رصيف . وقد اخذت البيان الى مبارك وذكرته بوعده ، فارسل لمدير الجمارك الذي وصل خلال دقائق . وكل ما قاله له كان «يقول الدكتور انك ارسلت له بيانا بالرسوم الجمركية . لا تفعل ذلك مرة ثانية اطلاقا . يمكنك الانصراف » .

وكانت تلك اخر مرة اتلقى فيها بيانا بالرسوم الجمركية . وهذا امتياز ثمين حقا ، اذ وفر على الارشالية مئات الدولارات خلال الخمسة والثلاثين عاما الماضية .

وقد قضيت وكالفرلي صيف عام ١٩١٤ ونحن نبني منزل الطبيب ونكمل بناء المستشفى . وكانت لي خبرة محدودة في البناء اكتسبتها في البحرين ، اما كالفرلي فكان جديدا على الصناعة رغم انه تعلم الكثير من مراقبة المهندسين اثناء عملهما في بناء المستشفى ويشكل خاص ، كيفية مزج اسمنت « بورتلند » كما انه قرأ كثيرا حول القواعد والاعمدة وحول

مشكلات البناء بشكل عام •

قبل ان اكمل هذه القصة الشيقة ، اود ان اشير الى ان المهندسين الشابين اللذين شيذا المستشفى لم يبقيا في البصرة بل عادا الى اميركا خائبي الرجاء بسبب قلّة الطلبات التجارية • وكانت مدينة البصرة مدينة تركية متخلفة في طريقها للتهاوي • ولو ادرك المهندسان ان بريطانيا ستحتل البصرة في الحرب العالمية الاولى ومكثا فيها لامكنهما اقامة مشروع تجاري ممتاز بسهولة ، لكنهما غادراها قبل الان بسنة •

وتنقلت عمليات البناء اشكالات كثيرة • اولاً ، كان البنّاؤون والعمال الذين استخدمناهم من العرب ، وكانت لديهم افكارهم الخاصة حول عملية البناء ، ولم يكونوا بسبب نزعتهم الفردية قادرين على قبول اية اوامر او تحمل ادنى توبيخ • وكانوا جاهلين تماماً المعنى المستقيم والعمودي والافقي وغيرها • ولا يغيرون اهتمامهم للدقة في التنفيذ • ونادراً ما كان المتجول في المدينة يرى اي باب او نافذة مستطيلة بشكل صحيح او مثبتة في الحائط بحسب الابعاد الصحيحة • وبعبارة اخرى ، كان العمل الذي قدمه لنا هؤلاء الرجال هو النوع الذي يتقبله كل سكان الكويت •

وكان اسمنت « بورتلند » مادة جديدة بالنسبة لهم ولم يتمكن معظمهم من تعلم طريقة استعماله باتقان • ويمكن اليوم رؤية نتاج عملهم غير المتقن واللامبالي • ولو عرف هؤلاء البنّاؤون بكميات اسمنت بورتلند الهائلة التي ستستخدمها الكويت عام ١٩٥٠ لربما بذلوا مجهوداً في تعلم كيفية استعماله •

ومكذا فان الخلافات بيننا وبين البنّائين كانت كثيرة •

وكان استبدال البنائين لا يفيد لان البنائين الجدد كانوا من نفس النوعية . ومما زاد الطين بلة كوننا مسيحيين . فقد رفض اي كويتي ان يعمل عندنا . وما زلت اذكر صباح احد الايام حيث وجدت في المورشة قطعة فولاذ مكتوب عليها بالطبشور : « سوف يحترق الانجليز كلهم » ان شاء الله ، في نار جهنم . وكان هذا الترحيب مكتوبا بالعربية طبعا . وكان عامة الناس لا يميزون ، في ذلك الوقت ، بين الانجليز والاميركيين .

وكانت المواد المستعملة في البناء من الفولاذ والحديد الممدد واسمنت « بورتلند » ، باستثناء الابواب والنوافذ التي كانت من خشب « التيك » المستورد من بومباي . وكان الجزء العلوي من النوافذ من الزجاج المصقول . ولا اذكر عدد الواجه الزجاج المثبتة في ابواب ونوافذ المستشفى ، ولكنني اذكر ان المستشفى ظل يعرف لسنوات باسم « البيت الزجاجي » .

قمت وكالفرلى بتصميم منزل الطبيب ، واتبعنا نفس اساليب البناء المحلية في تشييده ، باستثناء استعمال دعائم فولاذية - بدلا من خشبية - لسقف الشرفة .

وقد اعطانا المعتمد السياسي البريطاني الكابتن شكسبير ، والذي كان مهندسا هاويا ممتازا ، اقتراحات قيمة عند وضع خطط البناء . وفي هذه المرحلة غادر شكسبير الكويت ، وخلفه شخص اعلى رتبة منه بكثير وهو الكولونيل و.ج. غراي . وكان الكولونيل غراي حاضرا اثناء قياس قطعة ارضنا .

وكانت المواد المحلية المستعملة في بناء المنزل مؤلفة من الحجارة المأخوذة من خليج الكويت اثناء الجزر ، والطين او الصلصال ، وجص باريس الذي كان المادة

المستعملة دائما في طلي الجدران من الخارج والداخل . وكان
جص باريس ممتازا للدهان الداخلي ، ولكنه كان يتلاشى
بسرعة ، وكان المطر يزيله بسهولة . واليوم يزداد استعمال
اسمنت بورتلند في الدهان الخارجي ، لانه كما يقول العرب
« لا يذوب » .

وقد توقفنا في استخدام نجارين ايرانيين ماهرين من
البحرين قاما بصنع كل الابواب والنوافذ من خشب « المتيك »
الذي استوردناه من كراتشي .

يتضح مما ذكرنا ان مسألة البناء كانت بحاجة الى
اشراف دائم ، وبما أنني كنت اسكن وكالفرلي على بعد ميل
من المينى ، فاننا كنا نمشي مسافات طويلة لتأمين الاشراف
المستمر . وكانت لدينا واجبات اخرى كالتطبيب ، والتعليم ،
والتبشير لا تترك لنا وقت فراغ . وهكذا اقتسمت وكالفرلي
اوقات الاشراف وكان ذلك يعني المشي اميالا - لان وسائل
النقل لم تكن متوفرة - باستثناء الحمير التي لم نعتد عليها .

وقد نجحنا في وقت لاحق في استخدام شاب عربي
مسيحي من شمال العراق للاشراف على العمل ، ولكن
العمال رفضوا اوامره لانه مسيحي . وذات يوم قممت
وكالفرلي بمراقبته وهو يبذل جهده لتوجيه طاقات العمال ،
وقال لي كالفرلي بطريقته البطيئة والمتعمدة « اتساءل اذا كان
ذلك الشاب يدرك عدم جدوى محاولته » .

ووصلت الى موقع العمل ذات صباح لاجد الشاب
وسط زمرة هائجة . ولم اتمكن من رؤيته ، بل رايت أعلى
شمسيته التي كانت تلوح بضعف فوق رؤوس العمال .

واندفعت وسط الزمرة حتى وصلت للشباب وسألته : «ماذا حدث ؟ » «اجابني : لقد دعوني بالاجنبي فضربت احدهم بشمسياتي فهجموا علي» . وقد حذرته من تكرار تصرفه اذا كان يريد البقاء سالما .

وفي الرابع من اب (اغسطس) ١٩١٤ انفجرت الحرب العالمية الاولى . وغادرت السيدة كالفرلي وطفلها الكويت الى اميركا في ٧ اغسطس . وقد لحق كالفرلي في اول نوفمبر بزوجه وبقيت وحدي في الكويت . وكنت انا وزوجتي والكولونيل غراي نشكل الجالية المتكلمة بالانجليزية في الكويت ، بالإضافة الى طبيب الحجر الصحي ووكيل الشحن السكوتلندي .

وكانت خيبة أمني بسير عملية البناء تزداد يوما بعد يوم . فالعمل كان يتم بطريقة لا مبالية وغير دقيقة وبدون حماس الخ . . . - حين جاءني ذات صباح رجل إيراني طويل يرتدي تنورة ذات ثنيات ، وقبعة من اللباد ، وقال لي انه معلم بناء . وكان يصحبه شاب بعين واحدة عرفت انه الغلام الذي يتلقى التدريب على يديه . ووقفت معهما فراقب العمال العرب فانتقدهم الإيراني بلهجة الواثق من النفس . وقد رجاني قائلا «دعني اريك ما يمكن لي ولساعدتي وبضعة رجال ان نفعل» . وفتح كيسا من الخيش واخرج منه عدة متكاملة لم ار مثلها منذ زمن بعيد،كالشاقول (ميزان البنائين) والكوس (زاوية النجار) والملج (اداة يطين بها) ، والشاكوش والقنوم الخ . . . فطلبت منه ان يعمل في بناء حائط ، وادركت انه ومساعدته رجلان لديهما معدات ويعرفان كيف يستعملانها وعقدت اتفاقا فوريا معهما ، ثم طردت كل عمالي العرب ، وطلبت من الرجل جلب عمال إيرانيين مكانهم . وسار العمل

بعد ذلك بسهولة ، وسرعان ما انتهى بناء المنزل بشكل دقيق
وجيد حقق امنيتي •

وعندما انتقلت وزوجتي الى منزلنا الجديد «فوق التلة»
كان مكشوفاً لا يحيط به اى سور • فالارسالية ، لسبب
غريب ، لم تخصص اية ميزانية لبناء سور حول المنزل • وقد
شعرنا بحرج ودهشة كبيرة عندما استيقظنا صبيحة اول ليلة
قضيناها في المنزل لنجد وجوه البدو رجالا ونساء تطل علينا
من كل نافذة • وقد صعدوا التلة ليتفرجوا على المنزل وما
بداخله • وما لبثت ان احطت المنزل باسلاك شائكة ارسلها لي
اخي من انجلترا ، وكنا قبل وصول الاسلاك الشائكة عرضة
للفسوليين • وبمرور الزمن تمكنت من تسييج جزء من المنزل
بسور والجزء الاخر باسلاك شائكة •

ومن متاعينا الاخرى اننا وعدنا الشيخ ببناء سور
بحري على طول قطعة ارضنا في الجانب المواجه للبحر •
ولكن الارسالية لم تخصص اى مبلغ لهذا السور • وقد عدت
من اجازتي وانا اتوقع ان يكون العمل قد تم • وعندما عرضنا
الموضع على المجلس في نيويورك ابدوا دهشتهم لقيامنا بتعهد
مكلف من هذا النوع • فأخبرناهم ان هذا الشرط يسري على
كل مبيعات الارض الواقعة على البحر وانه لم يجر فرض هذا
الشرط على الارسالية وحدها •

واثناء تبادل المراسلات مع نيويورك كانت المسألة تزداد
الحاحا • فكلما هبت ريح قوية من الشمال مع مد عال جدا
كانت اسسنا على الشاطئ تتداعى •

وكان واضحاً انه ما لم يتم اتخاذ اجراء فعال ، فان

مياه البحر ستهدم اسس مستشفانا • ولم تكن لدينا اموال
في مركز الكويت ، ولكن قسم البصرة الطبي هسرع الى
مساعدتنا على بناء حائط متواضع لصد الامواج • وقد هدم
هذا الحائط عند هبوب اول عاصفة كبيرة ، ولكن حجارته
بقيت مكومة في مكانها وخففت من قوة الامواج نوعا ما • وما
لبثنا ان تلقينا اموالا كافية من نيويورك وبنينا السور البحري
القائم حاليا •

سنوات الحرب

كانت الكويت عام ١٩١٤ معزولة عن العالم الخارجي تماما . وقد وقعت الحرب بكل بطولتها وبؤسها على رؤوسنا وجلسنا نرقب مقتل «اول مئة الف جندي» فوق أرض فرنسا . وبدأ غزو العراق ، وتحولت كل السفن التي كانت تنقل المسافرين والبريد والبضائع عبر الخليج «الفارسي» الى نقل الجنود . وانقطعت السفن عن زيارة ميناء الكويت .

ولم تكن هناك اية طريق أو مواصلات سلكية ولاسلكية تربط الكويت بالبصرة . وكان هناك زورق خاص ينقل بريد الكولونيل غراي الحكومي ، وبرقيات رويتر من فاو في اعلى شط العرب . وكان هذا الزورق يأتي بين الحين والآخر ويعيد صلتنا بالعالم . ومع استمرار الحرب تم تركيب لاسلكي ميدان ثم خط تلغرافي مع البصرة ، ولكن العزلة التامة كانت نصيبنا في بداية الحرب .

وكننت كإنجليزي تواقا الى الانضمام للحرب بطريقة ما ولكن كان من الصعوبة بمكان ان اترك الكويت في ذلك الوقت . فقد كنت المبشر الوحيد هناك ، وكانت تعهداتنا

للشيخ مبارك تحتل مكان الصدارة • وقد طلب مني السير برسي كوكس الذي كان المفوض السياسي الاول في العراق والخليج «الفارسي» ان ابقى في الكويت ، مشيرا الى انني سلاكون اكثر افادة لبلادي في الكويت مني في اى مكان اخر في العالم • فقد كان هناك مقدار كبير من انتشار الشعمور المعادي لبريطانيا في الكويت ، وكان نفوذي وتأثيري سيساعد على تخفيضه وهكذا بقيت في الكويت •

وفي الواقع ، تحملت عددا من المسؤوليات اثناء الحرب فقد اصبحت مسؤولا عن علاج كافة موظفي الحكومة البريطانية بمن فيهم موظفو المعتمدية والبريد والفرقة الخاصة بالحصار • كما انه تم اقامة معسكر رملي ضم ضابطتين بريطانيتين ، واربعة رقباء وعرفاء ، وعدة مئات من الحماليين • وكانت هذه مسؤولية كبيرة • كان الرمل ينقل الى العراق حيث تقوم وزارة الحربية باستعماله في مختلف اعمال الاسمنت • وبعد ان اخذت السفن تأتي للكويت في وقت لاحق من الحرب اصبحت ضابط الحجر الصحي ، وبقيت كذلك الى ما بعد نهاية الحرب •

وكنت طوال سنوات الحرب مشغولا جدا ان بدأت بالاضافة الى مهامى الحكومية بتطوير مستشفانا الجديد الذي تم بناؤه في اكتوبر عام ١٩١٤ (تم بناء منزلي في نفس الوقت تقريبا) • وكان علي العناية بمدرسة كالفري لتمكنها من الاستمرار ، واخيرا كان هناك قداس الاحد بالعربية والذي كنت اقيمه في منزلي في المدينة . والذي اصبحت الان منزل بائعنا المتجول ومدير مدرستنا •

وكان القداس بسيطا وموجها خصيصا لعامة الناس

اذ كان يتضمن عادة مقطعا من الانجيل ، وصلاة ، وترنيمة دينية أو اثنتين . وكان موقع المنزل مثاليا ، اذ يقع في وسط المدينة على طريق رئيسي يؤدي من البحر الى السوق . وكان المقداس يعقد كل احد بدون انقطاع مدة ثلاثين سنة ، اى الى ان قامت الارسالية باخلاء البيت . وقد تعرف الالف الكوييتيين على تعاليم وافعال السيد المسيح من خلال ذلك القداس .

وكان المشاغبون يبذلون كل جهدهم احيانا لعرقلة عملنا التبشيري بارسال الاولاد للصراخ امام باب البيت اثناء القداس ، او بقذف المستمعين في الباحة بكتل من الوحل من خلف السور .

وفي احدى المناسبات كنت اخطب في مئة وخمسين شخصا تقريبا عندما دخل ثلاثة رجال حسنو الهدنام وجلسوا يقربي . وبينما كنت اتكلم اخذوا يقاطعون حديثي بالقهقهة والكلام بصوت مرتفع . وقد طلبت منهم عدة مرات التوقف عن مقاطعتي الا انهم لم يصغوا لي . وازداد ضجيجهم حين بدأت باعطاء عظتي . توقفت عن الكلام وقلت لهم ما لم تسكتوا ساخضطر لاجراكم من المكان . وقد بدا تهديدي مسلما كثيرا لهم اذ زاد استهزاءهم . وقفزت على زعيمهم وامسكته برقبته ثم القيت به خارج المنزل . وقد فقد حطته وحذاءه نتيجة للعراك ، وعدت لاكمل خطبتي بدون اية مشكلات اخرى .

وسألت نفسي وانا عائد الى بيتي : هل ما فعلته كان صوابا ؟ وقد اكد لي كالفرلي ان تصرفي كان صحيحا لان هناك تقليدا في الاسلام يقضي بالقاء المشاغبيين خارج المساجد .

واغلقت مستوصفي في المدينة في بداية نوفمبر عام ١٩١٤ وبدأت عملا منتظما في المستشفى . وكان المستشفى بعيدا عن البيوت والاماكن العامة مما جعلنا نفكر باعادة فتح المستوصف . ولكننا صمدنا وبدأ الناس تدريجيا يعتادون القدوم الى المستشفى ، وكان عددهم يزداد باستمرار وكان الرجال والنساء والاطفال يقصدوننا . وقد عملت في البداية مع زوجتي في المستشفى ، وانضمت اليها الدكتورة اليانور كالفري بعد عودتها من اجازتها في اميركا .

وكان ادخال اول مريض للمستشفى حدثا في حد ذاته ، فلم يكن في المستشفى أسرة أو أي أثاث آخر . وكان عدد موظفينا صغيرا جدا لان تدريب المساعدين يحتاج الى وقت . وقد حضر احد افراد عائلة كبيرة لمقابلتي بعد ظهر احد الايام وقال ان صديقا له اصيب بالرصاص وجرح في الصحرَاء وهو بحاجة الى مداواة . وقلت له « احضره » ، ولكن عليك ان تحضر له سريرا وطعاما وماء وخادمين للعناية به» .

ووافق الرجل فورا ، ووصل الجريح بعد الظهر ولكنهم لم يحضروا معه شيئا مما طلبته . وقمت باجراء الجراحة له وانا واثق ان الحاجات ستصل حتما . وحل المساء دون ان يصل شيء ، وقام الرجل الذي رافقه الى المستشفى بمفادرتنا .

وبعد نصف ساعة على غروب الشمس وصل الرجل الذي طلب ادخال الجريح اصلا . وقد عنفته على عدم الوفاء بوعدته فأخذ يشتمني ودعاني بالكافر واهانني ثم قال لي انني اتحمل مسؤولية تدبير الامر كله . وقد غضبت فعلا ، وامسكت بالرجل وهزته حتى اصططت اسنانه واخبرته انني سأشكوه للشيخ .

وقد فوجيء الرجل بتصرفي كثيراً ، وهول خارجا •
وبعد اقل من نصف ساعة وصل موكب طويل يحمل كـل
الحاجات التي طلبتها • واصبح الرجل صديقا حميما لي فيما
بعد وقمت باعطائه دروسا في الانجليزية •

وقد اوقعتني حدة طباعي في المشاكل عدة مرات ، ولكنها
افادتني احيانا كما في الحادثة المذكورة • وحصلت حادثة
اخرى في ربيع عام ١٩١٥ • فقد استدعاني ذات صباح الرجل
الذي اصبح فيما بعد شيخ الكويت • وكان اخوه الاصغر
مريضا • ذهبت الى القصر ووجدت ان المريض مصاب بالتهاب
رئوي حاد ، فاعطيت تعليماتي وارسلت له الدواء •

وقمت بعد الظهر بزيارة المريض فوجدت ان تعليماتي
لم تتبع اطلاقا وانه لم يعط الدواء • وتضايقت بالطبع ، ثم
خرجت وانا اقول انني لن اعود لمعاينته • وعندما وصلت
المنزل اخبرت زوجتي بما حدث فقالت انني تسرعت كثيرا ،
فاخذت اخلق المبررات لكنها كانت غير مقنعة •

وابصرت مساعد الشيخ احمد يخرج من بوابة المستشفى
ويتجه نحو منزلنا • وكان يحمل شيئا فوق ذراعه • وقمت
فورا ودعوته لتناول الشاي معنا • دخل ووضع سجادة
عجمية جميلة على الارض وسلمني رسالة من الشيخ احمد •
وكانت الرسالة كالتالي : «عزيزي الدكتور لقد قضيت اليوم
في الصحراء اتدرب على اطلاق النار • وعند عودتي للمنزل
تكدرت عندما علمت انك تركت منزلنا غاضبا لان تعليماتك
لم تنفذ • وقد غضبت وامرت ايضا بضرب الخدم • فاذا
حضرتم لزيارة اخي مرة ثانية تأكد ان كل اوامرك ستطاع •
وكتعبير عن تقديري ارسل لك سجادة صغيرة » •

وما زالت تلك السجادة احدى اعز ممتلكاتي • وقد
عدت للقصر ، ويسرني القول ان الولد تعافى وما زال حيا •
ولم يكن لدينا في تلك الايام بنسولين او ادوية سلفات • وكان
العديد من مرضى الالتهاب الرئوي يموتون •

وقد ازلت في هذه الاثناء تورما من ذراع رجل اصبح
معروفا في العالم العربي وهو الشيخ حافظ وهبة ، وهو
الان سفير الملك عبد العزيز بن سعود في البلاط الانجليزي •
وكان حافظ في ذلك الوقت معلم مدرسة مكافحا في الكويت •

وفي نوفمبر عام ١٩١٤ دخلت تركيا الحرب الى جانب
المانيا • وقد كلفت تلك الخطوة تركيا الكثير ، اذ فقدت
بسببها العراق وفلسطين والحجاز في الجزيرة العربية • كما
شهدت هذه السنون أيضا نهاية النفوذ التركي في اليمن • وقد
كانت الحرب مكلفة بالنسبة لبريطانيا أيضا • فقد قتل
الالاف من البريطانيين قبل ان يتمكن الجنرال السير ستانلي
مود من ترسيخ قدميه في بغداد • وما زالت المقابر التذكارية
ومقابر الحرب في العراق اوضح شاهد على ذلك •

وقد لعب مستشفى لانسينغ التذكاري في البصرة دورا
كبيرا ، منذ بداية القتال في العراق ، في العناية بالجرحى
الأتراك • وكان الطبيبان ارثر بنت وزوجته مسؤولين عن
المستشفى ، وقاما ببناء مستشفى ميدان فوق مجمع مستشفى
الارسالية الاميريكية في البصرة بمساعدة قائد الاركان
البريطاني وبالتعاون معه •

وفي عام ١٩١٦ انتشر وباء التيفوس في مستشفانا •
وقد اصيب به الدكتور بنت ورئيس المرضيين وأعضاء آخرون

من طاقمنا الطبي ، مما ادى الى وقوع عيب على السيدة
يفت ، والتي ما لبثت ان اصببت بالتيفوس وتوفيت في ٢٩
مارس ١٩١٦ . وكان زوجها اثناء مرضها وعند موتها ما يزال
غائبا عن الوعي . فتلقى صدمة هذا النبا الدكتور فان اس .
ولقد كان موت السيدة بنت ضربة قاسية للجالية كلها ادت
الى اغلاق المركز الطبي للرسالية في البصرة . وبالرغم من
ان ارثر بنت تجاوز الصدمة الا انه انسحب من العمل الميداني
وعاد ليستقر في اميركا .

وقد نقل مستشفى لانسينغ التذكاري الى العمارة في
وقت لاحق . وقد رأت الرسالية ، بعد بناء مستشفى مود
التذكاري الكبير في البصرة ان العمارة احوج الى خدماتنا
الطبية من البصرة .

وكننت في هذه الاثناء اقيم في الكويت طبعا ، وقد
استغربت ان يبرق لي من بومباي الدكتور وليام تشامبرلين ،
سكرتير شؤون الرسالية الخارجية في نيويورك بتاريخ
٢ نيسان (ابريل) ١٩١٦ يخبرني بانه سيصل الى البصرة
قريبا وان علي ان اتخذ الترتيبات اللازمة لتمكينه من زيارة
البحرين والكويت . كان ذلك خلال معرفتي النبا الفاجع
بموت السيدة بنت ف وقعت في حيرة من امري ولم اعرف
ماذا افعل . فلم تكن هناك سفن تزور الكويت . وقد خطر
لي ان اطلب من الشيخ اعارقي احد يخته لكي اذهب الى
البصرة واحضر الدكتور تشامبرلين . وكان الشيخ مبارك
قد توفي منذ بضعة شهور (٢) . وقد تولى الحكم مكانه ابنه
الكبير الشيخ جابر . ولم يعد لي جابر يد المساعدة ، وبدا نبا
موت السيدة بنت مسليا بالنسبة له اذ قهقه مليا لفكرة موت
طبيب .

وبعد ان خذلني الشيخ توجهت الى صديقي المعتمد السياسي البريطاني الكولونيل غراي وطلبت منه ان يضغط قليلا على الشيخ لاعارتي يخته وفعل . فوجدت الزورق تحت تصرفي . ووصلت البصرة في الوقت المناسب لاستقبال الدكتور تشامبرلين على ظهر السفينة ونقلت تشامبرلين الي يخت الشيخ ، واخبرني القبطان اثناء تناولنا الفطور ان ليس لديه فحم يكفي للوصول الى الكويت وانه لم يجد فحما في البصرة . وقد انزعجت لهذه الاخبار ونزلت الى الشاطئ لارى ما يمكن عمله .

اخذت الدكتور تشامبرلين الى مقر الارشالية ، وذهبت لاقابل السياسيين . وكان المسؤول السياسي الاول في «الخليج الفارسي» والبصرة هو السير برسي كوكس . وكان اعلى رتبة حتى من قادة القوات المقاتلة كافة . وكان الوضع في ذلك الوقت ، ابريل ١٩١٦ ، يقلق المسؤولين البريطانيين كثيرا . فالحرب في العراق لم تسر سيرا حسنا والجنرال تارسند كان محاصرا مع قوة كبيرة في كوت العمارة وقد فشلت كل الجهود لامداد قواته الجائعة .

وهكذا كنت مضطربا حين ذهبت للقيادة السياسية ، ولكنني اطمأنيت فورا نتيجة للترحيب الذي قابلني به الكابتن ارنولد ولسون ، الساعد الايمن للمسير برسي كوكس . وكانت تلك اول مرة اقابل فيها ولسون ، وقد اعجبت فورا بحيويته وطاقته وفهمه للامور . وقد نشأت بيننا صداقة دامت حتى موت ولسون في اوائل الحرب العالمية الثانية .

كان ولسون من افضل الادمغة في العراق ، وقد نال عدة

اوسمة بعد نهاية الحرب العالمية الاولى . وقد تحدثت معي بلطف وسألني ما اذا كان بإمكانه تقديم اية خدمة لي . فأخبرته بمشكلة الفحم ، فرفع السماعرة وأمر شخصا بتزويد اليخت بعشرين طنا من الفحم . وكنت متأكدا ان أوامره ستنفذ بحذافيرها .

ثم سألني ولسون عن سبب زيارتي للبصرة فأخبرته ، وعبرت له عن رغبة دكتور تشامبرلين بزيارة البحرين والكويت وتحدثنا حول امور عامة ، وادهشتني مقدرة هذا الرجل المشغول تماما على اشعار زائريه بان لديه وقتا كافيا لمقابلتهم . واخيرا قال لي ان السير برسي كوكس يود رؤيتك ولكنه مشغول حاليا ، فلماذا لا تبقى للغداء ويكون لدينا وقت كاف بعد ذلك .

وتناولت الغداء مع السير برسي كوكس والكابتن ولسون واخرين ، وأجلسني السير برسي كوكس عن يمينه زيادة في تكرومي . ثم اخذني الى مكتبه وراح يحدثني عن المشكلات العسكرية التي تواجهه . وتناول عدة خرائط عن مكتبه واراني لمصاعب التي تواجه الجيش في كوت العمارة وكيف يحاول تذليلها . وكان السير برسي كوكس مسؤولا عن مجرى الامور في العراق طوال تلك المسنين الصعبة واطهر عبقرية في كافة الظروف . كان طويل القامة ونحيفا ووجهه يشبه وجه شيخ روماني . وكان انفه الكبير علامة بارزة في وجهه ، وكان يوحى لي بانه رجل لا يسهل خداعه ولا تفوقه اية حادثة .

وما لبث برسي ان سألني عن سبب حضوري للبصرة

فأخبرته القصة ، واضفت ان بإمكانني اخذ الزائر للكوييت ولكن لا استطيع ترتيب زيارته للبحرين . فنظر الي السيسر برسي لحظة ثم قال : «الا تعتقد ان بإمكان البحرية المساعدة في هذا الامر» .

وتمتت موافقا بينما تناول قلما وكتب بعض السطور على ورقة وقراها : «الى السيد دوغلاس سانت أوپين ، عندنا في البصرة الدكتور وليام تشامبرلين ، سكرتير الشؤون الخارجية في مجلس الارسالية العربية في نيويورك ، يرغب في زيارة الكوييت والبحرين ونود مساعدته . ويرافقه الدكتور ماليري من الكوييت . فهل بإمكانك مساعدتنا؟ » .

وسألني اذا كان النص جيدا فاجبت بالايجاب . وضغط على جرس فحضر رجل وناول الرسالة طالبا ابراقها فورا . والتفت الي قائلاً : «اذهب وروح عن نفسك ساعتين ثم عد لآخذ جواب الرسالة» .

وبعد عودتي بقليل وصل الجواب التالي : «اذا سافر الدكتور تشامبرلين والدكتور ماليري على سفينة البريد التي تغادر البصرة الليلة الى بوشهر ، فان الباخرة كليو ستقابلهما صباح غد في بوشهر وتنقلهما الى الكوييت والبحرين» .

وقد سارت الامور بشكل حسن يصعب تصديقه ، وساعدتنا البحرية بأكثر مما تعهدت . فقد غادرت والدكتور شامبرلين البصرة تلك الليلة وقبل ان ترسو سفينتنا في بوشهر قابلنا زورق من الباخرة كليو ، ونقلنا اليها . وتناولنا الفطور مع قائدها ويدعى لويس الذي اخبرنا ان عليه زيارة مينائين

او ثلاثة موانئ قبل الوصول الى البحرين . وحال وصولنا للبحرين سيبقى فترة تمكن الدكتور تشامبرلين من القيام بجولته ، ثم ينقلنا الى الكويت حيث يبقى فترة مماثلة . وكانت لديه اوامر باعادة الدكتور تشامبرلين من الكويت الى البصرة وهكذا حللت والدكتور تشامبرلين ضيوفا على البحرية البريطانية لمدة عشرة ايام وتمكن تشامبرلين من انجاز جولته .

وكانت تلك الرحلة لا تنسى بالنسبة للدكتور تشامبرلين خاصة وان الكابتن لويس سهر على راحتنا . فقد اعطى غرفته للدكتور تشامبرلين ، بينما نمت واياه في حجرة الطعام وكان الكابتن لويس مشغولا باستمرار في تلقي وارسال البرقيات بحيث لا ينام الا قليلا .

ولم يفت الدكتور تشامبرلين شيء من الروتين اليومي في السفينة . وقد اعجب بشكل خاص «بالصلاة العامة» التي كان يقيمها الكابتن لويس كل صباح على ظهر السفينة . ولم يكن تشامبرلين يعلم ان هذه الصلاة كانت واجبا يوميا في كل سفن الاسطول البريطاني . وكان تشامبرلين مدركا للتكريم الذي احاطته به الخدمة البريطانية والبحرية الملكية ، وتأثر كثيرا بالخدمة التي اداها له السير برسي كوكس والبحرية في وقت حرج عندما كان في امس الحاجة لها . وقد ارسل الكابتن لويس مجموعة قيمة من الكتب كتعبير عن شكره على الضيافة التي لقيها على متن الباخرة كليون .

أبن سعود والاضواء

قابلت عبد العزيز بن سعود المعظم لأول مرة في ربيع عام ١٩١٤ . وكنت حسب ما أعلم ، أول مبشر قابله حتى ذلك الحين . وكنت حتماً الأول بين زملائي في التعرف على الرجل العظيم . وسبق ان ذكرت ان ابن سعود مدين بكل شيء لمبارك الذي رعاه منذ عام ١٨٨٥ حتى عام ١٩٠١ - اى خمسة عشر عاماً تقريبا . فقد استولت قبائل شمر من الشمال عام ١٨٨٥ على الرياض ، عاصمة العائلة السعودية ، وهرب ابن سعود مع والده عبد الرحمن وعدد من الاتباع المخلصين الى الكويت . وقام مبارك عام ١٩٠١ بتجهيز واعداد ابن سعود لشن حملة مضادة مكنته من استعادة عاصمته . فتمت استعادة الرياض بالطريقة العربية التقليدية - شن غارة جريئة محكمة التخطيط ودقيقة التنفيذ . ومنذ ذلك الحين لم يتراجع ابن سعود خطوة الى الخلف . فقد استولى عام ١٩١٢ على محافظة الاحساء من الاتراك واصبح في السنة نفسها قويا لدرجة لفت معها أنظار حكومة صاحب الجلالة .

وتم في ربيع عام ١٩١٤ عقد مؤتمر في الكويت ما بين مبارك ، وحكومة صاحب الجلالة وممثلين عن الحكومة التركية

وكان يختفي خلف الاجتماع وجه المانيا المقنع . وقد ارادت تركيا اقامة قنصلية لها في الكويت ، وكان سيتم بحث موضوع سكة حديد بغداد المعقد . ولم يكن مبارك او ابن سعود يكتان اية محبة للاتراك . قدم ابن سعود من الاحساء على رأس قوة متوسطة الحجم وعسكر في الصحراء على بعد عشرين ميلا غربي الكويت . (ولم يدخل الكويت ربما خوفا من الغدر التركي) . وقد اصيب العديد من رجال ابن سعود بالحمى فبعث الى مبارك يطلب منه ارسالي لمعالجتهم .

فارسلني مبارك في احدى افضل عرباته وجرى تغيير خيولها في منتصف الطريق . كان الطقس باردا ولكن الشمس كانت مشرقة ، ولن انسى الرعشة التي سرت في جسدي وانا ادخل معسكر ابن سعود . وكان المعسكر يتألف من صفيين من الخيم البيضاء الكبيرة الاوروبية المصنع . وفي نهاية الصفيين كانت خيمة ابن سعود تقف بشكل افقي يصل ما بين الصفيين . وكان لها سرادق كبير ، وقف ابن سعود عند بابه ينتظرني كي يرحب بي .

ونزلت من العربة ودخلنا خيمته معا . ولم يكن فيها احد ، وكانت مفروشة بأثاث عربي فخم . كانت ارضها مغطاة بالسجاد ، وكانت تتوزع على السجاد بقرب حائط الخيمة وبشكل متعامد مع الحائط سروج الجمال المغطاة بجلسد الخرفان الابيض الجميل . وهذه السروج تريح المتكئ عليها كثيرا اثناء جلوسه على الارض . وكان عدد كبير من البنادق اللامعة والممتازة معلقا على جدران الخيمة . وكان كل مسا في الخيمة يتميز بالترتيب والاناقة . وكانت الخيمة توحى بالامان والثقة والقوة ، تماما مثل ما أوحى لي صاحبها وهو يصافحني .

وكان ابن سعود شخصية بارزة حقا • كان طويل القامة - يزيد طوله على ستة اقدام - وكان يرتدي ثوبا ابيض طويلا وفوقه عباءة بنية مزركشة بخيوط ذهبية • وكان يضع على رأسه حمة ذات عقال مزودج • وكان حافي القدمين اذ ترك حذاءه عند الباب • وكان يبدو في صحة جيدة وقدرت عمره بخمس وثلاثين سنة • وكانت كل ملامحه - وجهه وجسده - تعبر عن الذكاء والنشاط والتصميم والقوة • وكان وجهه جميلا ينسجم مع شهرته بالورع والتقوى • ولم يكن وجهه وجه انسان متهتك ، بل وجه رجل عرف كيف يهذب نفسه وعرف معنى الصوم والصلاة • واخيرا ، كان واضحا انه ارستقراطي •

ومن المرجح ان كل الاوروبيين والاميركيين الذين تعرضوا لتأثير هذا العربي البارز سيصفونه بنفس الصفات ، كما وان تاريخه خلال الخمس والثلاثين سنة الماضية يدل على صحة انطباعاتي الاولى عنه •

ولم نطل الحديث • فقد شربت فنجان قهوة ، واستأذنت بالانصراف لمعاينة المرضى وقد تمكنت من رؤية المعسكر كله • فبالاضافة للخيم البيضاء ، كانت هناك خيام عربية - وخيام سوداء مصنوعة من الصوف او من شعر الماعز او من كليهما وكان معظم المرضى مصابين بالمalaria التي حملوها من الاحياء وقد عالجتهم باقراص «الكورنين»^{١٤}

وكان محاربو ابن سعود ينتمون للاخوة المشهورين المعروفين بالعربية باسم «الاخوان» • ويشكل هؤلاء الرجال المعروفون ايضا «بالوهابيين» اكثر فرق الاسلام تزمنا وتمسكا

بنصوص الدين • وتستمد هذه الفرقة اسمها من رجل رأى في منتصف القرن الثامن عشر أن الإسلام قد تراجى ، وأن المسلمين قد ابتعدوا عن أصول دينهم • وكان الرجل يدعى محمد بن عبد الوهاب • وقد دعا للحياة البسيطة ، وإلى نبذ الرفاذية ، والامتناع عن التدخين والمشروبات الروحية وعن التزيين بالمجوهرات والحلي • كما دعا إلى مراعاة أوقات الصلاة وسائر الفروض الدينية مراعاة تامة •

وهناك حقيقة هامة يجب تسجيلها وهي أن العربي لم يقاتل بضراوة عبر تاريخه ، إلا عندما كان عامل الدين يدفعه للقتال • وكان تعصبهم الديني السبب في تمكنهم خلال تسع سنوات من وفاة النبي من تدمير الإمبراطورية الفارسية التي كان عمرها ألفا ومنتى عام ، ومن إخضاع الإمبراطورية الرومانية البيزنطية التي لا تقل قوة عن الإمبراطورية الفارسية ومن سلبها أغنى مقاطعاتها • هذا القول مأخوذ عن غلوب باشا الذي لخص منجزات العرب خلال مئة عام في مسنده السطور • وظل العرب مندفعين إلى أن أوقفهم تشارلز مارتل دى تور عام ٧٣٢ ميلادية • وظلت الجيوش العربية ، تحت الراية المحلاة بالمعبرة الشهيرة «لا إله إلا الله» «محمد رسول الله» ، منصوره لا يمكن مقاومتها مدة أجيال ثلاثة •

ومن المؤكد أن محمد بن عبد الوهاب قد استغرق يفكر في هذا الماضي طويلا • وقد لقيت دعوته استجابة سريعة • وأصبح لديه جيش قوي • واستولى الوهابيون عام ١٨٠٦ على مدينة مكة ، وبدأ أنهم سيستولون خلال وقت قصير على كل المدن الرئيسية في الجزيرة العربية • ولكن الأتراك - الذين أتكوا على القائد اللامع إبراهيم باشا بن محمد علي باشا

الكبير حاكم مصر (الالباني) - تمكنوا من قهرهم وتدمير
عاصمتهم عام ١٨١٨ .

غير ان الحركة الوهابية لم تمت بل خمدت لبعض الوقت .
وكانت تهب بين الحين والآخر لتاكيد وجودها . وحدثت اخر
انتفاضة لها بعد ان ارتفع نجم ابن سعود . وهنا جاء دور ابن
سعود ليستغرق في التفكير . فقد وجد المادة الصالحة لصنع
امضى سلاح . وكان قد استعاد عاصمته من قبائل الشمال ،
ولكن زعامة الرياض فقط ما كانت لترضي طموحه لان الاتراك
يحيطون به من الجانبين - من الخليج « الفارسي » ومن البحر
الاحمر . وكانت مقاطعة الاحساء قريبة منه وفيها حامية تركية
رمزية . اما من ناحية البحر الاحمر ، فان كل حاكم عربي قوي
تطلع الى السيطرة على المدينتين المقدستين ، مكة والمدينة
المنورة . والى الشمال ، كان اعداؤه التقليديون قبائل الشامر
يشكلون خطرا وتحديا دائما لا يمكن ازالته الا بهزيمتهم
واخضاعهم .

ولكن لا يمكن تحقيق اي من هذه الطموحات بدون جيش
قوي ، ومن اين له ان يشكل ويمول جيشا وهو فقير ، وفي
الوقت الذي لا تدين له قبائل الصحراء بالولاء ؟ وكانت حركة
الموهابيين هي الجواب ، وسارع ابن سعود للافادة من وضعها
فمنحها تاييده التام . وعادت شعلة الايمان تتأجج ، واصبح
الاخوان اكثر حماسا . وكانوا يعتقدون انهم المسلمون
الحقيقيون وان من ليس منهم فهو كافر . وارسلت الكتب الى
القبائل تدعوها للانضمام للحركة والا فسيكون مصيرها
الذبح . وبدا الاخوان يقرأون اسماء الناس في المساجد ،
وكان يجري اعتقال المتغيبين عن الصلاة ومعاقتهم . وقد قيل
انه جرى قتل بعض الناس رميا بالرصاص لانهم كانوا يدخلون .

واصبح التدخين امرا معييا • وانتصر التعصب الاعمى • وولد جيش المجاهدين الجدد الذي امكن بواسطته اقامة المملكة العربية السعودية • وقد تحرك ابن سعود عام ١٩٢٠ ضد مدينة حائل وهزم قبائل شمر هزيمة نهائية ملحقا اياهم بسلالة الرشيد • وما زال افراد عائلة الرشيد البارزين مسجونين في الرياض • وانتصر الاخوان طوال عشرين عاما حيثما قاتلوا وهكذا اثبت جيش الجهاد العربي نفسه مرة اخرى كجيش لا يقهر • وتمكن ابن سعود من تحقيق طموحاته واثبت للعالم قوته الخارقة كقائد ديني وعسكري وكرجل دولة • لقد ساعد الاخوان فمكنوه من صنع مكانته الكبيرة • ويرجع تقهقر حركة الاخوان التدريجي الى اعتقاد قادتها ان بامكانهم القضاء على ملكهم ابن سعود وانتزاع ما حققوه له • ولكن تلك قصة اخرى •

ويجب التشديد على ان الملك لم يكن رجل دنيا وباحثا عن الثروة استغل سذاجة رجاله لبناء قوته واقامة مملكته • فمن المؤكد انه كان يؤمن بمثل الاخـوان الروحية نفس ايمان الخلفاء في الايام الاولى للفتح العربي • وقد تغلى عن الاخوان لانهم حاولوا تجريده من سلطته • فليس هناك اي ملك يتحمل العصيان •

وبعد ان عاينت كل المرضى في المعسكر ، عدت لتقديم تقرير لابن سعود • وبعد ان بحثنا مختلف الحالات المرضية انتقلنا الى حديث عليم ووصلنا الى مسألة حسنات كل من الطب القديم والحديث • وكان واضحاً ان ابن سعود قد قرأ كتاب ابن سينا ، واخذ يدافع عن الافكار القديمة بشدة • وقلت له بتأدب انه لجأ الى خدماتي انا بدلا من ان يستعين بخدمات الحكماء العرب في الكويت • وقلت اثناء الحديث ان الجانب الروحي لعمل الطبيب اهم من الجانب المادي • فعلى الطبيب

ان يحب مرضاه • ووافق ابن سعود على كلامي ، و اضاف ان
الطب ياتي في قمة الامور الضرورية للانسانية •

وعندها قلت له « لماذا لا تدعنا نبني مستشفى في
الرياض ؟ »

واجاب « يادكتور ، دعني اروي لك قصة • كان الملاك
جبريل يقف على ابواب الجنة حين وصل مؤمن وطلب السماح
له بالدخول • وسال جبريل الرجل بضعة أسئلة ثم قال له
يمكنك الدخول ، لكن عليك اولا ان تضحى بخروف للتمثال
الذهبي الكبير الذي تراه على احد جانبي البوابة • واجابه
الرجل « استغفر الله • انا لا اعيد الاصنام ولا اضحي لها » •
وقال جبريل « حسنا ، اذا كان الخروف كبيرا ، فما رايك
بدجاجة ؟ » واجاب الرجل : « انا لا اضحي للاصنام » وسأله
جبريل « ولا حتى ذبابة ؟ اذا قدمت ذبابة تكون قد اوفيت
القانون حقه وتدخل » وصرخ الرجل : « كلا ، كلا • لا اله
الا الله محمد رسول الله » • وعندئذ سمع صوتا بعيدا يقول
« ادخله انه مؤمن حقا » • « وبعد وقت قصير حضر مؤمن
آخر وخضع لنفس الامتحان ورفض تضحية خروف او دجاجة
ولكن عندما وصل الى الذبابة خائنه شجاعته • فقد خاف من
ان يمنع من دخول الجنة وضحي بذبابة • وسمع الصوت البعيد
مرة اخرى : خذه الى جهنم فهو ليس مؤمنا » •

وتابع ابن سعود كلامه قائلا : هل ترى ما اعني • فنحن
في وسط الجزيرة العربية لسنا من دين واحد فقط ، وانما
نحن اعضاء في نفس الفرقة الدينية • وانا واثق انني لو
سمحت لكم بالاقامة في بلدي لاحضرتكم رسالتكم وكتبكم
وحاولتم نشرها • وسيبيل ذلك افكار قومي وستواجهني
المشكلات • كلا • لن اضحي حتى بذبابة لاي دين آخر • وعندما

أحتاج اليكم أستدعيكم ، ولكن لن أسمح لكم بالاقامة الدائمة في بلدي ،

واستأنذت بعد ذلك بقليل وانسحبت الى خيمة اعدت خصيصا لي . وما كدت اجلس حتى سمعت صوت رجل يفرك اصابعه محاولا لفت انتباهي اليه فدعوته للدخول . وبعد حديث بسيط ، سألته عما يريد ودهشت كثيرا حين سألني اذا كان بإمكانه تدخين سيجارة في خيمتي . وسمحت له بذلك ، فأخرج علبة السجائر من طيات ثوبه . وما لبثت ان سمعت طرقة الاصابع نفسها مرة ثانية وثالثة فسمحت لصاحبها بالدخول . ووجدت نفسي في وضع خطير اذ سمحت لرجال مضيقي بخرق قانونه في خيمتي . وارتعبت خوفا من وصول رائحة الدخان الى خيمة ابن سعود . ولكن كلا من هؤلاء اكتفى بتدخين سيجارة واحدة وانسحبوا ولم تصل الحادثة الى ابن سعود . ولم يكن هؤلاء الرجال ليجرؤن على تلك المخاطرة لولا بعد خيمتي عن خيمة زعيمهم ، ولو لم يكن وقت راحة بعد الظهر حيث ينام الجميع . وبدا انهم كانوا واثقين انني لن اشي بهم . وأخيرا، كانوا في خيمتي وكانت لهم حقوق الضيافة العربية .

وكانت تلك الحادثة دليلا على عدم موافقة كل اعضاء حركة الاخوان على تزمة الحركة وتشددتها فيما يتعلق بالمسلك الشخصي .

وبعد اربع سنوات ، عام ١٩١٨ ، كانت هناك تنمة لحديثي مع ابن سعود . فقد عرفت تلك السنة بسنة انتشار وباء الانفلونزا الذي اجتاح العالم وقضى على خمسة وعشرين مليون انسان كما يقال . ولم ينج القصر الملكي في الرياض من الوباء - ومن المثير للعجب كيفية تمكس الانفلونزا من عبور الصحراء العربية المترامية الاطراف . وقد اصيب بالوباء كل

من والددة ابن سعود وولده الاكبر ، العزيز على قلبه ، تركي ،
وقد توفيا عند وصول زميلني بول هاريسون قادما من البحرين
بعد ان استدعاه ابن سعود على عجل .

مكث بول هاريسون في الرياض ثلاثة اشهر عمل
خلالها بجد وقام بعدة عمليات جراحية . وقد تساءلت كثيرا
فيما اذا كان ابن سعود قد فكر في حديثه معي وبقصة جبريل .
وقد قام بول هاريسون بعدة زيارات الى الرياض ونجد بعد
ذلك . كما قام كل اطبائنا في البحرين - ديم ، ستورم ، ثومس ،
واستير بارني ايمس - بالعمل في عدة مناطق من ولاية ابن
سعود ووثق ابن سعود - الملك حاليا - باستير واولاها علاج
نسائه طوال سنين . وهي ما تزال تسافر الى الظهران
والرياض وغيرهما لمعالجة النساء عندما يرسل لها الملك
احدى طائراته الخاصة .

وقد تمكن اخيرا احد رجال الدين المسيحي من زيارة
الداخل برفقة زوجته وابنه واحد اطبائنا . وكان الرجل القس
ج . و . فان بيرسوم من البحرين اول قسيس يدخل الرياض .
ويبدو لي ان الارسالية العربية ستتمكن في المستقبل
القريب من اقامة مستشفيات في عدة نقاط استراتيجية في
الداخل . ولكن الملك لم يتراجع حتى الآن عن الموقف الذي
اتخذه في ربيع عام ١٩١٤ ، منذ ستة وثلاثين عاما عندما قال
انه سيستدعيننا عندما يحتاجنا ولكنه لن يسمح لنا ابدا بالاقامة
الدائمة في دياره .

وقبل ان نترك موضوع ابن سعود مؤقتا ، اجد من المفيد
تسجيل حادثة جرت عندما كنت مسؤولا عن مستشفانا في
البحرين . فقد عدت من الغداء في احد ايام عام ١٩١٠ او
١٩١١ لاجد بطاقة مزينة بالذهب مكتوب عليها « السيد طالب

باشا متصرف الاحساء ونجد » • وقد استدعيت الخادم الذي افاد بان الزائر الرقيق قد ابلغه بانه سيمر بعد الظهر •

وحضر الزائر بعد الظهر ، وقلت له اثناء شربنا الشاي لقد عرفت من بطاقتك انك متصرف الاحساء ونجد - فهل تزمع الذهاب الى نجد ؟

واجاب ضاحكا : « كلا فاذا ذهبت سيقتلونني • وسيكون مقري في الاحساء ، فتعييني متصرفا على نجد جاء من قبل اسطبول ، وهو تعيين اسمي فقط » •

ولست اذكر الآن ما اذا كان السيد طالب موجودا في الاحساء عندما اجتاحتها ابن سعود من الرياض وهزم حاميتها التركية بسهولة • واذا لم يكن السيد طالب آخر متصرف للاحساء ، فهو حتما الحاكم قبل الاخير • وقد كان السيد طالب ، ابن السيد رجب نقيب البصرة ، رجلا قديرا وشخصا بارزا في العراق اثناء المفاوضات السياسية التي تلت الحرب العالمية الاولى • وكان يعرف ضعف القوات التركية في الحسا حق المعرفة ، ولم يكن بالتالي يعتزم المخاطرة بالاحتكاك بسكان نجد المتعصبين والاقوياء •

وذات مرة ، ربما عام ١٩١٥ ، دخل مستشفىنا في الكويت احد الاخوان للمعالجة • وكان قد وقع عن جملة وكسر ساقه • واصبنا صديقين ، وبعد ان تماثل للشفاء دعاني لزيارة الصحراء • ولكنني قلت له « انك تكرهني • واذا ذهبت معك الى الصحراء ستقتلني » •

واجابني : « صحيح انني اكرهك ، ولكن كرهني لك كره
ديني فقط . اما كرجل فانا احبك ولن انسى ما فعلته لي » .

هل كان قادرا على حمايتي ؟ لا ادري . فلم اراققه ولم
اضع محبته موضع اختبار فعلي .

الاخوان على ابواب الكويت

تميز عام ١٩٢٠ بازدياد حدة التوتر ما بين الكويت والمملكة العربية . وقد بلغت سطوة جيش الملك ابن سعود ، المؤلف من الاخوان الوهابيين المتعصبين اوجها في هذا العام بعد هزيمة قبائل الشمر في الشمال واحتلال عاصمتهم « حائل » اذ أصبحت كل بلاد الشمر ، كما هي اليوم ، جزءا من امبراطورية ابن سعود . وأصبح الاخوان في نظر الناس قوة لا تقهر .

ومن المؤكد ان ابن سعود كان يتطلع الى الكويت بشوق نظرا لمينائها العميق . وكان امتلاك هذا الميناء يعطي منفذا هائلا لامبراطوريته الجديدة . وكان الشيخ مبارك العظيم - الوحيد القادر على التعامل مع ابن سعود وتجذب الحرب معه - يرقد في قبره منذ اربع سنوات .

وقد ازدادت تحرشات الاخوان بالكويت خلال شهر مايو من ذلك العام ، فكانوا يشنون هجمات مستمرة على الاراضي الكويتية فيفقدون بعض الرجال لكنهم يسببون للكويت الكثير من الخسائر في الجمال والخراف والماعز . وقد هزمت القوات الكويتية بقيادة دعيج بن سلمان في منتصف مايو هزيمة شنيعة على يد الاخوان . واسر دعيج السلطان ، بينما فقد

هلال المطيرى وهو اغنى تاجر في الكويت الف جمل ٠ وازداد الشعور بالعداء لابن سعود في الكويت ٠ وقام الشيخ سالم حاكم الكويت الجديد ، في ٢٢ مايو بتدشين بدء العمل في بناء سور جديد للمدينة ٠ وكان هذا ثالث سور للمدينة في تاريخ الكويت ٠ أما السوران السابقان فقد تجاوزتهما المدينة المتسعة باستمرار منذ زمن بعيد ٠ وكان السور الجديد يعتمد في شكل نصف دائرى خلف الكويت من البحر الى البحر ٠

وكان بناء هذا السور آية في التنظيم ٠ فقد فرضت الضريبة على سكان المدينة ٠ وتم تعيين مسؤوليات محددة لرجال المدينة البارزين ٠ وعين شخص مسؤولا عن الحفر وآخر عن الصلصال وثالث عن المواصلات ٠ وكان الصلصال المادة الرئيسية المستعملة في البناء وبما ان طول السور كان سيبلغ ثلاثة اميال وسلك جداره ستة اقدام وارتفاعه عشرين قدما ، فان كمية الصلصال المطلوبة كانت هائلة ٠ وعين رجل آخر مسؤولا عن توفر الجص والملاط بكميات كافية ورابع مسؤولا عن اطعام الالف العمال ، وخامس عن حل مشكلة توفير مياه الشرب للعاملين ٠

واستمر العمل الجاد طول الصيف اللاهب ، وتم بناء السور في سبتمبر اى خلال اربعة شهور ، وكان انجازا رائعا وامتد السور اكثر من ثلاثة اميال وعزل المدينة تماما من ناحية البر ٠ وقد جرى مد طرفيه الى داخل البحر ، والى مدى ابعد من المياه الضحلة الراكدة لمنع العدو من تسلق السور اثناء الجزر ٠ وكان للسور بوابات ثلاث ، وبوابة رابعة خاصة بالامير قرب قصر دسمان الخاص به ٠ وكانت البوابات اشبه بالحصون المنيعة ، وقد زود السور بأبراج لها فتحات تطلق منها النار كل ثلاثمة ياردة ٠ وكنت هناك على طول السور من

الداخل عارضة خشبية يمكن للمسلحين الوقوف عليها وإطلاق النار على العدو من فتحات في الجدار وهكذا كان السور آخر خط للدفاع وآخر انجاز في فن الدفاع كما يفهمه العرب . وأصبحت الكويت مدينة مسورة .

ولم اتمالك نفسي ، وأنا اشاهد تحفة سالم ، من استعادة كلمات الشيخ مبارك العظيم عندما سألته لماذا لم يبن سوراً حول الكويت واجابني « انا السور » .

في الجزء الثاني من كتاب «سموئيل الباب الحادى عشر الفصل الاول ، نجد الجملة التالية : « عندما يذهب الملوك الى المعركة » . وكنت وأنا طفل أسفردائماً من ملاحظة المؤرخ القديم التي تشير الى انه لولا ظروف معينة خارجة عن ارادة الملوك لذهبوا الى الحرب طوال السنة . وفي الجزيرة العربية ، حيث تكون الصحراء في الصيف كالفرن المشتعل لا يمكن شن الحرب . فالجمال والرجال قادرة على بعض ذلك الحر ، ولكن الخيول التي تحتاج الى كميات وفيرة من المياه غير صالحة للحرب في الصيف .

وكان الصيف يقترب من نهايته . وأصبح معدل درجة الحرارة ٩٨ درجة فهرنهايت . وكان اهالي الكويت يقولون طوال اسابيع « حالما تخف الحرارة سيهاجمنا الاخوان » . ولم تكن المدينة قد نسيت كارثة مايو . وكان الحقد على ابن سعود في اوجه . فقد هزمت الكويت مرة وكانت تخشى المواجهة الثانية .

وكانت تسود المدينة حالة توتر وقلق . وبدأت القوات بالتجمع في اليوم الثامن من اكتوبر ووصلت انباء تقول ان قوات ابن سعود بقيادة فيصل الدويش تهدد الجبراء وهي قرية

زراعية على بعد ١٨ ميلا غربي الكويت • وكان الشيخ سالم وجيشه في الجهراء لانها موقع اساسي لصداي هجوم على مدينة الكويت •

كان السؤال المقلق الذي تردد على كل شفة هو « ماذا نفعل اذا هزم رجالنا ؟ » • جرى التشدد في التجنيد الاجباري • وتم تفتيش دقيق لكل بيت ادى الى الحاق بضع مئات من الرجال بالجيش • وتم اثناء الليل تدعيم سور الكويت • وكان المدافعون عند السور يشجعون بعضهم بترديد اغنيات الحرب • وكان نومنا في الارسالية اثناء الليل صعبا لاننا كنا نبعد ٣٥٠ ياردة عن الطريق الغربي للسور •

وفي العاشر من اكتوبر وقعت المعركة • فبينما كنت اتناول الشاي مع زوجتي على شرفة منزلنا في الصباح الباكر سمعنا صوت الرصاص من الجهراء • وامتلأ الجو بالشائعات المتناقضة • وأصابنا الجميع حالة هياج • وهرع الجميع - الاغنياء والفقراء، الكبار والصغار الاحرار والعبيد - الى البوابات والسور لآخذ اماكنهم ومساندة المدافعين عنه • وادرك الجميع انه اذا انتصر العدو في الجهراء فسيهاجم الكويت بدون اذذار • ولم يكن هناك اي شخص بدون سلاح ، وكان الجميع تقريبا مسلحين ببنادق من الطراز « مازور » و « مارتيني » وكانت الذخيرة متوفرة بكثرة • وكان بعض الناس مسلحين بالسيف والمسدسات بالاضافة الى البنادق • ولم اتمكن من تمييز اصداقائي اذ كان الجميع يرتدون اثوابا قصيرة بيضا: ومتنطقين بالاسلحة ، وعلى رأس كل منهم حطة بيضاء وعقال اسود •

زارنا عند الظهر المعتمد السياسي البريطاني

الكولونيل ج . سي . مور ، واخبرنا انه سمع بان الشيخ سالم محاصر في قلعة الجبراء وانه معرض للخطر الشديد . وبعد حديث قصير اخذني بسيارته الى بوابة السور الجديد الرئيسية . وكان الشيخ احمد ، ولي عهد الكويت ، هناك وأكد لنا الاخير ان كل شيء على ما يرام وانه لا داعي للقلق .

ولكن المشهد الذي واجهنا كذب تفاؤله . فقد كان اللاجئون من الجبراء ومن الصحراء يتدفقون على البوابة عائلات بكاملها مع امتعتها المنزلية وجمالها وحميرها وكلابها . وكانت هناك فتاة بدوية تحاول جاهدة ادخال جمل هائج عبر البوابة . ولم تتمكن من ذلك الا بمساعدة سبعة رجال قاموا بضرب الجمل ودفعه بكل قوتهم داخل البوابة . وتكررت هذه الحادثة مرارا ، فالجمل يكره البوابات ، فكيف بالابواب الصغيرة .

وكان كل قادم جديد يلقي سيلاً من الاسئلة تطرح عليه من عدة رجال يصرخون باعلى صوتهم في آن واحد . ولم اتمكن من فهم الحوار . وكان الشيخ احمد يوجه بعض الاسئلة ، لكن الجميع كانوا يقاطعونه باستمرار بتدخلهم في الحديث .

وكانت حمير البدو السوداء الصغيرة تعبر البوابات وهي لا تكاد ترى من كثرة الحوائج المحملة عليها . وكسنت الحمير تحمل بالاضافة الى الحوائج المنزلية ، الاطفال والمكفوفين والمسنين . وكانت الكلاب كثيرة ومشغولة بمساعدة اصحابها .

وما لبث ان وصل بعض الفرسان وتبين انهم من خيالة

الشيخ سالم ، وقد تراجعوا لانقاذ ما يمكن انقاذه . وكانت هزيمة وتفرق خيالة الشيخ سالم على يد فيصل الدويش هي الخطوة الاولى في معركة الجهراء . وقد حملت انطبعا رئيسيا نتيجة لما شاهدته وهو ان المدينة في حالة رعب .

ووصل اوائل الجرحى في الساعة الثانية بعد الظهر ، وكانوا جميعا من الخيالة وبما أنهم سقطوا في بداية المعركة ، فان معلوماتهم لم تكن قيمة . ولكن مع غروب شمس ذلك اليوم اتضح ان الشيخ سالم محاصر مع قوته الرئيسية في قلعة الجهراء . وكانت لديه مؤن كثيرة ولكن الماء كان قليلا ومالحا ، وبدا الوضع ميؤوسا منه .

وبينما كنت وزوجتي نهم يتناول العشاء بعد غروب الشمس سمعنا صراخا زعويلا من الجانب الشرقي للمدينة . وكان صراخ النساء وبكاء الاولاد يصلنا بوضوح . وانطلقت المصيبة من كافة الارحاء بان الاخوان قد دخلوا المدينة . وطلبت المعتمد السياسي بالهاتف لان الضجة اتية من الجهة التي يقع فيها منزله ، وسألته عما يجري . واجابني بأنها حالة رعب فقط . فقد وصل بعض الفارين من المعركة الى احدى البوابات وظن الحرس انهم من الاخوان وتم توضيح الخطأ وخف الرعب . وهكذا مرّ يوم الاحد المليء بالاحداث .

وقد ارسلت تعزيزات في اليوم التالي ١١ اكتوبر ، مؤلفة من الحمالين الايرانيين ومن المطلبين للمعدلة وشذاذ الافاق من كافة الاوصاف الى الجهراء بطريق البحر على متن احد زوارق الشيخ . وقد انقذت هذه الخطوة الوضع . فالعالم كله يعرف أن هناك مقدارا كبيرا من الحظ في الحرب ، وقد كان التأثير المعنوي لوصول الزورق - رغم صغر حجم

التميزتات - كبيراً • وقد صادف وصول التميزتات مع وصول ستمئة رجل شمري لا يكون اى حب للشيخ سالم لكنهم يحملون الكثير من الكره للاخوان •

وكان الاخوان يشنون الهجوم ويندفعون اندفاعاً نحو الموت بشكل جعلهم لا يهتمون بتوفير الحماية لانفسهم ، الامر الذى ادى الى وقوع اصابات جسيمة في صفوفهم • واغتنم الشيخ سالم الفرصة وخرج من القلعة وقام بهجوم مضاد على الاخوان يسانده فيه الشمر والتميزتات التي وصلت من الكويت بطريق البحر • واستطاع هزيمة الاخوان خلال وقت قصير وجعلهم يطلبون السلام • وقد تم وضع ترتيب للسلم غادر بموجبه الاخوان المكان واخذوا جراحهم معهم • وهكذا انتهت معركة الجهراء لصالح الكويتيين بعد ان كانت الهزيمة قاب قوسين او ادنى •

وكانت معركة الجهراء احدى المعارك الدامية في تاريخ الجزيرة العربية • فقد دخل الاخوان المعركة بـ ٣٥٠٠ محارب قتل منهم ٨٤٠ محارب وجرح ٨٠٠ اخرون ، اى نصف القوة المحاربة تقريبا •

وانتشرت في الكويت قصة موت جرحاهم بسهولة نظرا لعدم وجود اية خبرة او مهارة طبية لديهم • وقام الاخوان اثناء محاصرتهم للشيخ سالم في القلعة بنهب قرية الجهراء ، واستولوا على كمية من المسك ووزعوها على رجالهم الذين قاموا بضمها الى الحاجيات الاخرى التي سلبوها فأشبع الجو برائحتها الذكية والنفادة وسرى اعتقاد في اوساط اهالي الكويت بان الشذى والمعبير يقتل المجروح • وكنت تشاهد الناس يوميا يتجولون في الشوارع وقد سدوا انوفهم

بالقطن والحلثيت* حتى لا يستنشقوا اية رائحة ذكية أو عبير
فقد استنشق جرحى الاخوان المسك ، وبالتالي ساءت حالة
جروحهم وماتوا . وكان ذلك الحادث بالنسبة للرجل العادي
في الكويت مسألة سبب ونتيجة واضحة لا تقبل الجدل . وما
زال هذا الاعتقاد قائما في الكويت ، ولكن انتشاره اصبح
محدودا . فالعلم يلعب دوره في محاربة هذه المعتقدات
الغيبية* .

وماذا عن الخسائر الكويتية ؟ كان عدد الجيشين
متساويا ، ولكن الكويتيين كانوا لا يجازفون بانفسهم ، بينما
كان الاخوان يندفعون الى العراء بغض النظر عن المخاطر .
كان ذلك بطولية لكنه لم يكن حربا . وقد قتل ٦٢ كويتيا في
المعركة فقط ، توفي اربعة آخرون في مستشفى الارسالية
الامريكية متأثرين بجراحهم كانت نسبة القتلى من الاخوان
الى الكويتيين ١٢ : ١ ، اما عدد الكويتيين فكان ١٢٠ جريحا
مقابل ٨٠٠ جريح من الاخوان .

وكان بين الجرحى الكويتيين الاربعة الذين ماتوا
متأثرين بجراحهم رجل مات متسما بالغاز ، وكانت هذه
الحالة الوحيدة للتسمم بالغاز التي شاهدها في الجزيرة
العربية . وقد دارت معركة الجهراء وسط حقول ذات سماد
كثيف وفي حقول الحنطة . وقد نتج عن ذلك انتشارعدوى
كبيرة . ولو كان لدينا بنسلين أو سلفات في تلك الايام

* الحلثيت : صمغ راتنجي يستخرج من جذور بعض النباتات
(المترجم) .

* ما زالت فكرة عدم الجمع بين الروائح والجروح منتشرة شعبيا
(المترجم) .

لتمكنا من انقاذ كل جرحانا .

وقد وصل معظم الجرحى الى الكويت يوم ١١ اكتوبر
ما عدا ذوو الحالات السيئة فقد وصلوننا بالبحر يوم ١٢
اكتوبر . وكانت الجراح تتفاوت ، بعضها طفيف وبعضها
عميق . وكانت هناك بعض الاصابات بالسيف والخنجر،
ولكن معظم الاصابات كانت نتيجة لطلقات البنادق .

واتى الدكتور ت . هـ . ماكنزي عضو مجلس ادارة
الارسالية يوم ١٢ اكتوبر من نيويورك لزيارتنا . وكنت في
ذلك الوقت ضابط الحجر الصحي في ميناء الكويت وكان
علي ان اتفقد كافة السفن القادمة للميناء . وقد وصلت الى
الرصيف الذي ينطلق منه قاربي فلم اجد ، فخرجت على
مقهى لاتناول فنجانا من القهوة . وعند دخولي المقهى
لاحظت ان وجهاء البلد موجودون هناك . وقد وقف الجميع
لتحياتي قائلين « اطال الله عمرك » ، و « ان شاء الله تعيش
الف سنة » وهكذا . كنت متعبا ومتضايقا لانني كنت اعمل
بلا انقطاع معظم الاربعة والعشرين ساعة الماضية . وقد
استأثت من تصرف الشيخ بعد الحوادث . فهو لم يذهب الى
المستشفى ، ولم يرسل رسالة شكر للجرحى او للذين
قدموا له المساعدة في المعركة .

وكان هناك الكثير من حديث الورع والتقوى دائرا في
المقهى ، وعندما قال لي الشخص البارز ان الله سيكافئنا
ثرت وقلت له . « هذا كله كلام جميل ولكن الكلام ارحس
بضاعة في الدنيا . انكم تلقون بعبء العمل كله علي ولكن
لم يخطر في بال احدكم ان يعد يد المساعدة ماليا او بأي
طريقة اخرى ، ففي بلادي ، يقوم الحكام اولا بزيارة الجرحى
ويبدلون ما في وسعهم لانقاذ حياة هؤلاء الذين خاطروا
بكل شيء في سبيل وطنهم ويسهرون على تأمين افضل

عناية ورعاية لهم • أما هنا فيقوم عبيد الشيخ بالقاء الجرحى على شرفة المستشفى ويرحلون • وهذا كل ما تفعلونه • ولا يتعب اي منكم نفسه بالتفكير بقدرة مساعدي القليلي العدد على تحمل هذا العبء الاضافي » •

ولاحظت فجأة ان بين الرجال البارزين الذين حدثتهم احد الشيوخ الكبار من العائلة الحاكمة فدب الرعب في نفسي ، وقد وقف هذا الشيخ ببطء رافعا رأسه ولف نفسه بعباءته ثم غادر المكان دون ان يقول كلمة او ينظر الي نظرة واحدة • وقد تبعه بقية الوجهاء • وتركوا جميعهم المقهى بنفس الطريقة • وبقيت وحدي مع صاحب المقهى • واخيرا غادرت المقهى •

وصعدت الى قاربي بتثاقل ، فقد ادركت انني ارتكبت خطأ مميتا وان طبعي الحاد اوقعني مرة اخرى في مأزق • وتساءلت عما سيحدث •

وجدت الدكتور ماكنزي على ظهر السفينة واصطحبته معي الى الشاطئ • واخبرته عما حدث في الايام الاخيرة ، ثم رويت له مأزقي المالي • واضفت انه سيرى مستشفانا الصغير وسيوافق على ضرورة وجوده واهمية الخدمات التي يقدمها •

وبينما كنت اتناول العشاء تلك الليلة مع زوجتي والدكتور ماكنزي حضر رجلان وطلبا مقابلي • خرجت الى الباب وادركت فورا ان الرجلين من بين الذين كانوا في المقهى في الصباح • وكان الرجلان لطيفين وقالوا انهما حاولا مقابلي عدة مرات بعد الظهر • وادخلتهما الى حجرة

مكتبي ، حيث بدأ احدهما الحديث بقوله « كما تعلم يا
دكتور كنا بين الحاضرين في المقهى هذا الصباح عندما
كلمتنا حول عدم قيامنا بأي عمل . وكل كلمة قلتها
صحيحة . وقد قمنا بزيارة معظم وجهاء المدينة . ونحن
نؤكد لك ان المدينة تدعمك وانها على استعداد لساعتك
ماليا وبطرق اخرى . وقد انتدبنا لابلاغك ذلك » .

وعندما اتم كلامه وضع على مكتبي لائحة طويلة
باسماء وجهاء ، وكان مدونا مقابل كل توقيع مبلغ من
المال دفعه صاحب التوقيع او تعهد بدفعه . وقبل ان
ينصرف ، اخرج من عباءته كيسا من الخيش واعطاه لي
قائلاً : « يوجد في هذا الكيس الف روبية . وهذا مبلغ
اولي كما اننا سنضيف بعض الاسماء الى اللائحة التي
رايتها . تصبح على خير والله يوفقك » .

وانحنيا لي ثم انصرفا . وكدت لا اصدق ما جرى ،
وتنفست الصعداء مرة اخرى . وعدت الى حجرة الطعام
لازف النبا المثير لزوجتي وللدكتور ماكنزي .

وكنت في صباح اليوم التالي في غرفة العمليات
عندما ابلغت بقدوم زائر . وكان الزائر زعيم احدى لكبر
العائلات في الكويت ، وكان يرفض دائما ان تكون له اية
صلة بالارسالية الامريكية . . وكانت هذه اول مرة تطل فيها
قدمه مقر الارسالية . وكنت لا اسمح عادة بدخول الزوار
الى غرفة العمليات ولكنني خالفت القاعدة هذه المرة .

وقف الرجل المسن يحدق بي لحظة ثم انهار ، وقال
وهو ينظر الى الجريح الممدود على طاولة العمليات باكيا
« يا دكتور ، لقد ادركت الان انه لولا هذا المستشفى لمات

ابناؤنا واخوتنا واحفادنا لانهم لن يلقوا اية عناية • وقد كنت عدوك حتى الان ، لكن اذا سمحت لي ساكون صديقك منذ اليوم » •

ثم اخرج كيسا فيه خمسمئة روبية وضعه على الطاولة وخرج وهو في ضيق شديد • وكان حتما متأثرا بما يجري في المستشفى اذ كان الجرحى يملأون المستشفى وكنا نعتني بهم •

وقد انتابني شعور كبير بالبهجة ، لان هذا الارستقراطي المتكبر قد اعترف بنا اخيرا • وظللنا اصدقاء حتى مماته ، بعد تلك الحادثة بسنوات •

ولكن تدفق وجهاء الكويت استمر طوال يومين وتجمع لدي عشية السادس عشر من اكتوبر ٦١٠٠ روبية - من بينها ٦٠٠ روبية من احد الشيوخ الكبار - بالاضافة الى عدة مئات من ابطال الارز ، وعدد كبير من البطانيات ، وكمية من الفحم تكفي مطبخ المستشفى لعدة اسابيع •

كان ذلك نصرا عظيما واخذت اردد اغنية نصر شعبية لنفسى • ولكن بالطبع بقي بعض المشككين الذين قالوا « لقد اعطوا ، لكنهم اعطوا نذرا يسيرا • » أما انا شخصا فكنت دائما اشعر ان الكويتيين لا يدركون ما نفعله من اجلهم الا عندما نبلغهم اياه تفصيلا ويهبون حينئذ للمساعدة • وكما قال المثل « انب رجلا حكيما وستجده يحبك » •

وعادت المدينة تقلق من احتمال هجوم جديد يكون موجها هذه المرة نحو الكويت نفسها • ووصلها مندوب من

العدو يوم ١٨ أكتوبر وسلم الشيخ سالم انذارا . وقد اجتمع قادة المدينة بحضور الشيخ سالم . وكان الاجتماع طويلا وعاصفا واضطر الشيخ سالم رغما عنه الى تقديم طلب رسمي للحكومة البريطانية لمساعدته . وقد قدم الطلب فعلا يوم ٢٠ أكتوبر . وتم في نفس اليوم رفض الانذار . ويمكن للمرء ان يتخيل ما كان سيحل بالكوييت لو قرر الشيخ سالم ان يقف لوحده في مواجهة الاخوان . وكان الشعور العام السائد في اوساط الكوييتيين هو ان الكويت غير قادرة على هزيمة الاخوان مرة ثانية . وبالطبع فان وراء هذا الشعور اسبابا وجيهة .

وكانت في الكويت سفينة حربية بريطانية ووصلت اليها سفينة ثانية يوم ٢١ أكتوبر . كما وصلت طائرة يسوم ٢١ أكتوبر وقامت بعد الظهر باستطلاع لتحديد مواقع العدو . وكنت اشرب الشاي مع المعتمد السياسي البريطاني حين دخل الطيار . وقد ذكر انه لم ير شيئا . وكان واضحا لي ان العدو لن يكون الا في مكان واحد هو الصباحية ، وهي مجموعة ابار على بعد ثلاثين ميلا جنوبي الكويت ، حيث تتوفر المياه والمرعى الحسن للجمال . كما يمكن هناك العناية بالجرحي مدة طويلة . وسالت الطيار عما شاهد في الصباحية فقال بيوتا واشجار نخيل . واخبرته ان الصباحية ليست سوى آبارا موحلة . ونصحته ضاحكا بان يأخذني معه في جولته القادمة .

وقد بهشت عندما طلب مني مرافقته في صباح اليوم التالي . ووجدنا الصباحية بسهولة وكانت خيم الاخوان هناك .

والقيت من الطائرة رسالة رسمية موجهة الى قائد قوات الاخوان فيصل الدويش . وقد ربطت الرسالة مباشرة طويلة حمراء وبيضاء وزرقاء وقد تضمنت تهديدا لفیصل بالانسحاب من الاراضي الكويتية والا فانه سيقصف ويجبر على الانسحاب . وكان لدينا في الطائرة بضعة قنابل . وسأذكر دائما كيف كتب لي الطيار ورقة عندما شاهد معسكر العدو جاء فيها «يا الهي ما هذا الهدف البسيط» .

كانت الطائرة من طراز د ٥ هـ ٩ حيث للطيار غرفته الخاصة وحيث لا يمكن تبادل الحديث معه . وقد احصينا الخيام وتفحصنا المكان من علو ١٠٠٠ - ٥٠٠ قدم . وسررت عندما شاهدت رجلا يلتقط الرسالة الحكومية التي القيتها . واخذ الاخوان يطلقون الرصاص علينا من بنادقهم فاضطرونا للارتفاع في الجو . وقد خرج الرجال من خيامهم من كسل الاتجاهات وهم يحملون البنادق . وعدنا الى الكويت بعد ان قمنا باستطلاع ناجح .

وصلت يوم ٢٢ اكتوبر سفينة حربية ثالثة وعلى متنها السير ارنولد ويلسون ، الذي كان المفوض المدني بالوكالة على العراق . وكان ويلسون احد الادمغة البارزة في العراق في ذلك الحين . وقام فوراً بعقد مجلس حرب على ظهر السفينة . وقد حضر الاجتماع الضابط البحري المسؤول عن شعبة «الخليج الفارسي» وقادة السفن الحربية الموجودة في الميناء والمعتمد السياسي في الكويت ، وقائد الطائرة وانا . وتم وضع خطط تفصيلية غطت كل الاحتمالات بما فيها احتمال اجلاء الرعايا البريطانيين والامريكيين عن المدينة . كما تم وضع خطط هجومية واخرى دفاعية شملت المعدات والحاجات

التي كان يجب احضارها من البصرة . وقد عاد السير ويلسون الى العراق بطريق الجو يوم ٢٢ اكتوبر .

وكان كل شيء جاهزا يوم ٢٤ اكتوبر . وغادر مبعوثو الاخوان الكويت في نفس اليوم ، وهدأت المدينة . وقد انتقلت مسؤولية الموقف الى البريطانيين وشعرت المدينة بالاطمئنان . وحضر السير ويلسون مرة ثانية يوم ٢٤ اكتوبر . وكان السور مليئا بالسلحين ونزلت وحدات بحرية من السفن الحربية البريطانية الى الشاطئ ومعها مدافع رشاشة ، وانيط بها حماية البوابات . وتم يوم ٢٥ اكتوبر وضع رجال الاشارة البحرية فوق منزل طبيب الارسالية ، وكان عليهم تأمين الحراسة ليلا ونهارا . وكان سقف منزل الطبيب يطل على الميناء وعلى معظم السفن الحربية .

ووصل قائد السرب «برنت» من العراق مع طائرتين يوم ٢٧ اكتوبر ، وطلب مني ان ارافقه في رحلة استطلاعية .

وكان فيصل الدويش قد ارسل رسالة نارية يتبجح فيها . ردا على رسالة الحكومة البريطانية التي القيتها فوق معسكره في الصباحية .

حلقنا فوق موقع الصباحية لنجد المكان مهجورا باستثناء خيمتين او ثلاث ربما تركت لايواء الجرحى الذين لم يتمكنوا من الانتقال . وربما كان فيصل الدويش يفكك معسكره ليقرر باتجاه الجنوب في نفس الوقت الذي املى فيه رسالته تلك . وحلقنا مسافة سبعين ميلا بعد الصباحية فلم نجد اى اثر للاخوان . اذ يبدو انهم رحلوا بسرعة كبيرة .

وما لبث قائد الجناح « برنت » أن اصبح ماريشال جو

وعين قائدا لسلاح الجو الاوسترالي واصبح مقر قيادته في
استراليا .

وسرت شائعات يوم ٣٠ اكتوبر بان الاخوان في الوفرة،
ولكن الاستطلاع الجوي لم يرههم ولم يهاجموا الكويت مرة
ثانية في تلك الفترة . وغادرت اخر سفينة حربية ميناء
الكويت في ٦ نوفمبر ، وهكذا نجت الكويت مؤقتا من
الطموحات التوسعية لابن سعود وجيشه المؤلف من المتعصبين .

وليست هذه القصة سوى جزء عام ويسير مما حصل
في الكويت خلال شهر بالغ الحرج ولكنها تعطينا مثلا على
قيمة الارسالية الامريكية في الكويت وكل العاملين فيها . وكان
ذلك الشهر بالنسبة للارسالية الامريكية بداية عهد جديد .

التخلف والنقد في الكويت المعادات والأفكار العربية النظرة للحياة

شهد يوم ١٥ ابريل (نيسان) عام ١٩١٢ احدى اسوأ الكوارث في حوليات البحر . فقد كانت الباخرة الجديدة تايتانيك والملاحقة بخط النجمة البيضاء ، والتي تزن ٥٣,٢١٠ طن وطولها ٨٥٢ ½ قدما وقوة محركها ٥٠,٠٠٠ حصان ، تقوم برحلتها الاولى عبر الاطلنطي عندما اصطدمت بجبل من الجليد وغرقت في اقل من ثلاث ساعات . وكان على متنها ٢٢٠١ شخصا غرق منهم ١٢٩٠ ونجا الباقون .

ومن بين قصص البطولة العديدة التي ظهرت في الصحف عن الحادثة رسخت واحدة في ذهني . ولا يستطيع أن اجزم بصحة القصة ، ولكن الموقف الاخلاقي الذي وراءها اهم ما فيها .

تحكي القصة ان مليونيرا كان يقف على ظهر السفينة وهي تغرق منتظرا نهايته عندما شاهد امرأة بين المسافرين

لا ترتدي حزام نجاة • ونزع المليونير الحزام الذي كان يرتديه وأعطاه للمرأة • ولم يكن لديه وقت للبحث عن حزام آخر لأن السفينة غرقت • وغرق المليونير بينما نجت المرأة •

بعد ذلك بشهر ، كنت ابحر في قاربي باتجاه قارب البريد الذي وصل الكويت لتوه • وكان معي في القارب عدد من العرب ، كنت أعرف معظمهم • ودار الحديث حول تحطم الباخرة تايتانيك فأخبرتهم القصة المذكورة أعلاه • وقد أثارت القصة الكثير من الاهتمام والتعليق • وقد قال لي رجل اعرفه معرفة جيدة : «يا دكتور لو كنت مكان المليونير هل تفعل ما فعل ؟»

واجبته «أرجو ذلك ، ولكن الامر يتطلب الكثير من الشجاعة • فقال لي «أنا لن أفعل ما فعله» ثم سألني «لنفترض ان المرأة كانت زوجتك ، هل تعطيتها حزام نجاتك ؟» •

واجبته «نحن النريبيون نعتبر سؤالك امانة • فالنسبة لنا تأتي المرأة دائما قبل الرجل ، والضعيف قبل القوي • وأنا لا أتصور غربيا يترك زوجته تموت أمام عينيه دون أن يحاول عمل شيء ما » •

وتابع الرجل « يا دكتور ، دعني اسالك سؤالاً آخر • لو تناولت السم انت وزوجتك وكانت لديك جرعة مضادة تكفي لشخص واحد ، فهل تتناولها انت ام تعطيتها لزوجتك ؟ » •

وقلت له « ان الجواب على سؤالك الاخير هو نفس الجواب على اسئلتك السابقة • فالتضحية بالنفس هي جوهر ديننا المسيحي » •

وانفجر قائلاً : «أنا اعرف ما الذي ستقوله • انفسك

ستقول ان المسيح قد ضحى بحياته لانقاذ الناس من الجحيم
وانه علم الناس كيف يكونون مثله . حسنا ، نحن لسنا كذلك
فانا ساقناول الجرعة بنفسى » .

وانا اعتقد ان الرجل كان صادقا تماما في كلامه وانه
حتما سيضع نفسه أولا . وانا اعتقد كذلك ان موقفه من
التضحية بالذات كان موقفا عاما بين الكويتيين في تلك
الايام .

وقد مضى اربعون عاما على هذه المحاوره ، وانا اشك
بوجود العديد من الرجال في الكويت الذين يتكلمون بتلك
الطريقة الغليظة . وانا مؤمن بان المستوى الاخلاقي قد ارتفع
وان اهالي الكويت اصبحوا يفهمون قول الرب «لا يملك اي
انسان حبا اكثر من هذا ، ان يقدم الرجل روجه من اجل
اصدقائه » . وحتى صديقي المشكك في طيبة الدوافع البشرية
والذي ما يزال حيا حسب علمي ، اصبح اقل تشكيكا بعد ان
كبر في السن ولا اعتقد انه سيتكلم اليوم بنفس الطريقة التي
تكلم بها عام ١٩١٢ .

وحدثت كارثة بحرية ثانية بعد عامين ، اي في ابريل
عام ١٩١٤ ، في الكويت وقد أعلن الحجر الصحي على كل
السفن القادمة الى الكويت . ونظرا لعدم وجود محطة ملائمة
للحجر الصحي في ذلك الوقت ، طلب من السفن القادمة
الرسو خارج الارصفة وكانت السفن ترسو عادة خارج الميناء
حتى تتم ايام الحجر الصحي المفروض عليها .

ووصل الى الميناء يوم ١٤ ابريل مركب عليه ثمانية
مسافرين يهود منهم خمسة نساء ورسا المركب خارج الارصفة .
وقد هبت اثناء الليل عاصفة شديدة صحبته ريح عاصلية .
وانقلب المركب وسقط المسافرون الثمانية في البحر . وقد غرق

اليهود الثمانية بينما استطاع البحارة انقاذ انفسهم والسباحة الى رصيف الميناء .

وارسل الشيخ من يدعوني لمقابلته وطلب مني ان افحص جثث الغرقى التى تم انتشالها من البحر . واثناء تقديم تقريرى للشيخ اخبرته ان الملاحين لم يحاولوا انقاذ اى من المسافرين ولم يعلق الشيخ على قولى . وعلينا ان نتذكر ان الليل كان حالكاً والبحر عالياً ، وانه من الصعوبة بمكان انقاذ اى من المسافرين المرعوبين . ولكن المركب ، من ناحية ثانية ، كان قريباً من الرصيف وكان هناك العديد من الناس ، معظمهم من البحارة ، وقفوا يتفرجون على الكارثة ولم نسمع باية اعمال بطولية ، ولم تجر اية محاولة ، حسب معرفتي ، لانقاذ الضحايا . وقد ترجع لامبالاة الكويتيين غير العادية الى كون الضحايا من اليهود ، رغم انني اشك بان ايا من الكويتيين قد علم بان المسافرين يهود قبيل وصول ملاحي المركب الى الميناء ورواية ما حدث .

معاملة الحيوانات

لا يلقي الحيوان في الجزيرة العربية ، بشكل عام ،
اية عناية او تقدير الا اذا كان له بالطبع فائدة آنية فيقوم
صاحبه باطعامه والعناية به الى حد ما . ورغم كل ما كتب عن
حب العرب للخيول تبقى حقيقة معاملة العرب السيئة للخيول
بحيث نجدها تعاني المما في الظهر وكسورا في الركب ومعداتها
دائما خاوية . وحتى الخيول الاصيلة تبقى مهملة ، واسطبلات
بعض الشيوخ العرب مدعاة للخجل .

فالمبرادع تبقى على ظهور الخيل اياما وهي متسخة ولا
يجري اي تفقد منتظم للخيول ، وغالبا ما تكون حوافرها
بالية .

اما الجمل فوضعه افضل ، ربما لانه عندما يقرر ان
لا يشتغل اكثر يترك على الارض ويموت . ويوقد العرب نارا
او يضعون قطعة حديدية حامية على ذنب الجمل المريض ،
ولكنهم يقشرون في دفعه للوقوف على قدميه .

وينشأ الاطفال العرب في جو من القسوة ، ويسمح لهم

بالتصرف على هواهم لان الكبار ، بكل بساطة ، لا يعرفون معنى القسوة . ويقوم العرب في الربيع باصطياد العصافير بالشباك الكبيرة اثناء هجرتها السنوية ويأكلونها بشهية . ولكن الاطفال الكويتيين يستعملون هذه العصافير كالعاب . ويمكن شراء اجمل عصفور في اوج الموسم بقرش امريكي واحد . ويجرى ربط احدىرجلي العصفور او كليهما ، ثم تقص اجنحته بمهارة لمنع من الطيران بعيدا . واذا كان العصفور من النوع المقاتل يجرى ادخال ريشة صغيرة في منقاره عند الانف لمنع من النقر . وبعد ذلك تبدأ الساعات الاخيرة المحزنة للعصفور ، اذ يلوح به في الهواء للتسليّة واللّهو .

ولكل بيت عربي حصته من القطط - الجائعة والجربانة والكثيية وذات العين الشريرة - ولا يطعم هذه القطط أحد ، ولذلك فهي دائما تتحين الفرصة للسرقة وعندما تسرق يقومون بضربها . اما كيفية تمكن القطط الصغيرة من البقاء على قيد الحياة فهي مشكلة في حد ذاتها اذ يقوم الاولاد بالامساك بها ويربطون خيطا محكما حول عنقها ويلوحون بها في الهواء او يجرونها على الارض حتى تموت . ولسم اشاهد طوال السنين التي قضيتها في الجزيرة العربية اى ولد عربي يعامل قطا برفق . ومن المستحيل اقناع العربي بانه لو اطعم القط بانتظام على الاقل لاصبح لديه حيوان يحبّه الغربيون ويعجبون به .

اما الكلب فيلقى اسوأ انواع المعاملة واقساها . وهناك رياضة شائعة بين الاولاد في الكويت وهي اطلاق عدد من الكلاب على كلب مريض او جريح . ويحيط الاولاد بالكلاب وهم يصرخون ويحثونها على مهاجمة الكلب الضعيف ، ولا

يتركونها حتى تقطعه اريا . اما اقصى ما يفعله الاولاد للكلاب فهو مزجهم قطعا من الزجاج بالرز واطعامه للكلاب ، ثم التسلي عليها تموت ببطء ، او على الاقل السرور بمعرفة انها ستموت ببطء والم فيما بعد .

والعربي صياد ماهر لكنه ليس رياضيا . ومع استخدام السيارة اتخذ صيد الغزلان طابعا منفرا بالنسبة لمحبي هذه الرياضة وصيد الحيوانات . فقبل استخدام السيارة ، اى منذ بضع سنوات ، كان صيد الغزلان يتطلب المهارة والصبر والتحمل ، وكان الصياد يصطاد كل غزال على حدة . اما الان فان الصياد يقود سيارة «الفورد» ويدهى بها الغزال . وما حظ الغزال في الافلات من سيارة لها محرك قوته ٢٥ حصانا في الصحراء الجرداء . وهكذا ترجع سيارات «الفورد» من الصيد ملطخة بالدماء ومحملة بالغزلان . وقد احضرت احدى السيارات اربعين غزالا ذات مرة . ونحن نفعل ما في وسعنا لاثارة الرأى العام ضد هذه الامور ، ولكن يبدو ان المذبحة ستستمر الى ان تختفي الغزلان من الوجود .

سرقة وأرجاع المروء

يوم ٢٢ يناير عام ١٩١٥ قامت اربع نساء من عائلة كويتية كبيرة بزيارة زوجتي . وكان منزلنا الجديد ما يزال يثير الفضول لاننا انتقلنا اليه في اكتوبر عام ١٩١٤ فقط . وكان اصدقاءنا يبدون اهتمامهم بترتيب الحجرات وبأثاثنا وبزخرفة البيت . ولم تكن معظم نساء الكويت قد دخلن بيتا اوروبيا وكن كلهن متشوقات لمشاهدة بيت سعيدة الجديد (سعيدة الاسم العربي لزوجتي) والمختلف عن كل ما عرفوه .

كان بيتنا يتألف من ست غرف ، وقد صممت كل غرفة لاستعمال معين . فكانت هناك غرفة نوم فيها سريران متشابهان ومرتبان بعناية . وغرفة الملابس وفيها دولابان واحد للزوجة وواحد للزوج . وحجرة الجلوس وفيها البانوف ورفوف الكتب والكتبات . وهناك حجرة الطعام وفيها الاطباق النظيفة اللماعة والمرتبعة على رفوف في خزانة حائط . وكان احد الرفوف مليئا بالسكاكين والشوك والملاعق المرتبة فسي مجموعات والموضوعة في ادراج مختلفة . وهناك الغرفة الخاصة باستقبال ضيوف زوجتي . واخيرا كان مكتبي حيث

اطالع واكتب واستقبل ضيوفي • وعلى جدران كل غرفة صور
معلقة • كما كانت لدينا مضافىء لم تر الكويت مثلها من قبل
وكان الكويتيون يستغريون كيف يخرج الدخان من المدخنة دون
ان يوسخ الجدران والسقف •

كان ترتيب البيت ونظافته مصدر وحي لصديقات زوجتي
فهن لم يرين مثله من قبل لان بيوت الكويت عام ١٩١٥ كانت
تتسم بالفوضى وعدم الترتيب • وكنت اتساءل كيف يعرف
الكويتيون اين وضعوا اغراضهم ! ، فقد كانت الاوساخ
والغبار في كل مكان ، ما يزال البيت المتوسط في الكويت في
حالة فوضى • ولا اتمالك ان اسال نفسي كيف يتحملون
الفوضى وعدم الترتيب • وكانوا يوجزون الحالة بجملة
واحدة : «حسنا انكم تختلقون عنا ، ولا يمكننا مجاراتكم فيما
تفعلون» •

وقد اعجبت الزائرات الاربع بالبيت وقضين ساعتين
تقريبا ومن يتفحصن كل شيء • وبعد ذهابهن بوقت قصير اماننا
الخادم بان سكينا فضا للفاكهة قد فقد • وطلبت منه زوجتي
ان يعيد البحث عنه بدقة ففعل ولم يجده • وكانت بصحبة
الزائرات عبدتان فوقع شكنا عليهما • ولم نشك ابدا باي من
الزائرات •

وما لبث ان ذاع الخبر بين سيدات المدينة بان زائراتنا قد
سرقن سكينا فضا، والقليل والقال موضوع مفضل في الجزيرة
العربية مثله في اي مكان آخر • وكانت التخمينات والشائعات
كثيرة • وقد حضرت الزائرات لمقابلة زوجتي وهن في حالة
كرب عظيم • وقد قلن لزوجتي: «سعيدة ، ابحتي عنه مرة اخرى
فتشني المنزل بدقة ، فلا بد من ان تجديه • وحتى لو لم تجديه ما

الاهمية فليدرك الكثير من السكاكين ، وفقد احداها لمن يضررك بشيء » ، واجابتهن زوجتي : « انتن لا تعرفن ما الموضوع ، فكل المشوك والسكاكين ، تلقيتها وزوجي كهدايا يوم زفافنا وهي بالتالي عزيزة علينا كثيرا . وهذه الهدايا مرتبة في مجموعات من ست او اثنتي عشرة قطعة ، واصبحت مجموعة سكاكين الفاخرة المهداة الي من صديق عزيز ناقصة الان ، اذ بقيت خمس سكاكين فقط » . وغادرت النساء الاربع البيت وهن منزعات كثيرا .

واستمر الوضع على نفس المنوال بضعة اسابيع عادت بعدها النساء الاربعة وقلن لزوجتي : « يا سعيدة ان هذه المسألة تكاد تقتلنا . فماذا نفعل اذا وصلت الى سمع الشيخ او اذا سمع بها رجالنا ؟ » وكنت دائما اتساءل هل تمكنت النساء من اخفاء المسألة عن رجالهن واعتقد الان انهن تمكن من ذلك . فهناك الكثير من الامور تجري في اجنحة النساء في البيوت لا يعلم الرجال عنها شيئا .

وقالت زوجتي للنساء « كل ما اريده هو سكينتي . وانا متأكدة ان باستطاعتكن اعادتها اذا بذلتن مجهودا » .

وعادت النساء بعد بضعة ايام ولديهن خطة . وقلن لزوجتي : « سعيدة ، لقد استنتجنا ان الطريقة الوحيدة لمعرفة السارق بيننا هي باحضار ملا من احد الجوامع الى بيتك حيث تمت السرقة ليقرأ القرآن الكريم فوق رؤوسنا - نحن الستة . واثناء قيام الملا بالقراءة ترتجف المذنبه وتتمزق وتموت . وهكذا تظهر الحقيقة » .

وافهمتهن زوجتي انها لا توافق على مثل هذا التصرف ، واضافت انهن متأكدة من انهن يعرفن السارق وان بإمكانهن ارجاع السكين اذا اردن حقا .

وقام أحد خدم المستشفى يوم أول مارس باحضار السكين وقال انه وجدها تحت احدى الاشجار في باحة المستشفى . وكانت السكين نظيفة ولماعة وبدا واضحا انهمسا لم تتعرض للطقس مدة الخمسة اسابيع تقريبا . ولم اعرف وزوجتي ما الذي حدث ، لكننا كنا متأكدين من ان الخادم قد تلقى رشوة وأمر بأن يقول لزوجتي انه « وجد » السكين .

العين بالعين

ان العقاب التقليدي للسرقة في الجزيرة العربية قاس جدا . وهو لا يقل عن قطع اليد ويمكن تسمية العملية بتر ، لان ذراع السارق توضع فوق قطعة خشبية كبيرة ويقوم الجلاد بفصل اليد عن الذراع بضربة واحدة بالسيف أو الفأس . واذا كان الجلاد غير ماهر أو اذا كانت الفأس غير حادة يضطر الجلاد الى ضرب اليد عدة ضربات الى ان يفصلها عن الذراع . ويجري ايقاف النزيف الناتج عن القطع بوضع اليد في زيت مغلي، أو بكيها بقضيب حديد حار . وتصاب اليد المقطوعة بالغرغرينا (التهاب) ويتساقط الجلد حتى المرفق بينما تبرز عظمة من الالتهاب ذي الرائحة الكريهة . ويتألم صاحب اليد المقطوعة الما عظيما الى ان يحدث شفاء جزئي حين يختفي الألم كله . ولكن العظمة تبقى ناتئة بضع بوصات من مكان القطع .

وكانت اول عملية جراحية قمت بها منذ اربعين عاما في البحرين عملية قطع ذراع من الابط نتيجة لقطع اليد . وقد جاءني الرجل من وسط الجزيرة حيث قطعت يده لمخالفته القانون . وكانت يده متسخة ولم تتماثل للشفاء بعد وتبرز منها عظمة طولها خمس أو ست بوصات . وقد مضى على قطع

يده عدة شهور • وقد تماثل عندي للشفاء وغادر المستشفى في
حالة جيدة • واجريت عدة جراحات لحالات مماثلة فيما بعد •
وكان قطع اليد امرا منتشرا في تلك الايام •

ولكن تاريخ الكويت الحديث لم يشهد حالات قطع اليد
اليمنى لسارق • وهذا دليل على تقدم الكويت التي اصبحت
تتمتع بخدمات قوة بوليس ممتازة •

الفتاة ممنوعة من الغزل

ان الفتاة العربية ، كزوجة قيصر ، يجب ان تبقى فوق الشبهات . ويمكن حتى للشبهة ان تكلفها حياتها . ويكفي اصغر انحراف عن الخلق العربي أو أقل همس في المدينة لتدمير شرف فتاة بريئة كل البراءة .

واذا اصبح شرف الفتاة موضع تساؤل لا يمحي العار. اللاحق بالعائلة سوى بموتها . ومن واجب الاخ الاكبر او ابن العم الاكبر ان ينفذ فيها حكم الاعدام ، وهذا القانون الذي لا رافة فيه ولا رحمة كان متبعاً في العائلة العربية زمناً طويلاً لم يعد يشعر معه أحد بأنه قانون قاس . ويكاد المرء لا يسمع كلمة واحدة على الفتاة المنحرفة . فهي قد انحرفت وهي تعلم تمام العلم مدى المخاطرة التي اقدمت عليها ولذلك عليها ان تدفع الثمن . ولا بد ان يكون مصيرها رادعاً لغيرها .

وهناك ظروف معينة لا تقتل فيها الفتاة وانما تعاقب بطريقة أخرى . فهي تسجن في غرفة يجري اغلاق نوافذها وابوابها بالاسمنت . وتترك فتحة صغيرة في الجدار يمكن من خلالها امداد السجينة بالطعام والماء .

كان احد مرضاي في صيف عام ١٩١٥ تاجرا ثريا من الكويت، وكان مصابا بالسل اصابة بالغة . وكان رجلا عصاميا بدأ حياته كعامل بناء وجمع من مهنته مبلغا - لان معلمي البناء يأخذون اجورا مرتفعة في الكويت - دخل به تجارة اللؤلؤ ونجح . ولكنه كان مصابا بالسل ، وكان واضحا انه لن يتمثل للشفاء .

وكانت احدى بناته فتاة جميلة في الثالثة عشرة او الرابعة عشرة من عمرها ، جميلة كاللعبة وروحها مرحة . (كان لي الحق بصفتي طبيب العائلة بدخول جناح النساء حيث كان مريضني يستقبلني دائما . ولا يسمح لاي شخص عادي بدخول جناح النساء) .

وقد قيل لي ان الفتاة جريئة بعض الشيء مع الصبيان اذ تقوم بمناداتهم عن السطح اثناء مرورهم بالشارع . وشعرت بان ذلك لهو برىء تماما . لكنهم ما لبثوا ان اكتشفوا انها تتبادل الرسائل مع شاب بواسطة رسول . واعتبر عملها مشينا وقد امر والدها ، رغم انه يحبها كثيرا ، بوضعها في غرفة مغلقة وباعطائها كميات قليلة من الطعام الرديء .

ومر اربعون يوما على سجنها ، وهي الفترة التي تعتبر اقصى حكم في هذه الحالات ولكن والدها - الذي يحتضر ، رفض اطلاق سراحها . وقد رجوته كثيرا وذكرته بان الدنيا صيف وان الحجرة المعتمة التي حجزت بها الفتاة اشبه بالفرن ، وان حياتها في خطر بسبب الحر والجوع والوحدة . ولكن رجائي لم يشفع لها عنده ، ورفض مجرد بحث الموضوع معي .

وذهبت للشيخ لكنه شعر بعجزه عن المساعدة في هذا

الموضوع وقال لي : « انا لا اتدخل ابدا في مسائل الشرف العائلية ، والقرار يرجع الى اهل الفتاة » . وهذا حقهم المطلق منذ بداية التاريخ العربي » .

ومات والد الفتاة بين يدي ولم انس كلماته الاخيرة : «لقد فנית» . وكانت هذه اول مرة اسمع فيها مثل هذا الكلام من عربي يحتضر .

وظلت الفتاة سجيئة اذ رفض اخوتها اطلاق سراحها . وكان مؤكدا انها اذا بقيت سجيئة ستلحق بوالدها .

وبينما كان المعتمد السياسي البريطاني يتناول الشاي عندنا ، روت له زوجتي قصة الفتاة الصغيرة التي كانت تمضي الشهور الثالث في الحجرة المغلقة . وحالما انتهت زوجتي القصة بقولها ان اطلاق سراح الفتاة لا يبدو محتملا ، وقف المعتمد عن كرسيه وهو يقول «يا الهي ، يا الهي » . لن اسمح بهذا . لن اسمح بهذا . هذا الامر لن يتم» وغادر منزلنا وهو في أشد حالات الانزعاج .

ولم نعرف ما حصل بالضبط ، لكن يبدو ان المعتمد السياسي قد قابل الشيخ وأصر على اصدار أوامره لاهل الفتاة باطلاق سراحها فورا . وأرسل لنا المعتمد رسالة يخبرنا فيها ان الفتاة ستكون طليقة عما قريب . وذهبت زوجتي الى منزل الفتاة وكانت حاضرة عندما وصل رجال الشيخ من القصر ومعهم امر باطلاق سراح الفتاة . وتم احضار عمال فورا قاموا بهدم الجدران . ولم تنتظر الفتاة انتهاء العمال من هدم الجدران بل قفزت من الغرفة عندما هدموا فتحة كافية لخروجها . وأخذت تركض فرحة كالمجنونة حتى سقطت مغميا عليها من الاعياء (٥) .

معجزة سفا

عدت وزوجتي الى الكويت في منتصف اكتوبر عام ١٩١٧ من اجازة دامت ثلاثة شهور قضيتها في كشمير ، وياشرت فور عودتي في اعادة النظام اليومي للعمل في المستشفى الى سابق عهده . واثناء تناول العشاء في نفس اليوم ، سمعنا طرقا على الباب . وكان الطارق رجلا اعرفه بالمشاهدة فقط ينتمي الى اكبر عائلة في الطرف الغربي من المدينة - عائلة محافظة وارسقراطية لها عدة بطون وفروع عربية حتى الصميم ، ومنازلها تغطي منطقة كبيرة ولم يكن موقف هذه العائلة وديا تجاه الارسالية الاميركية .

وكان لحيي زائري في الليل دلالة . فهو ربما لم يشأ أن يشاهد وهو يدخل منزل الطبيب المسيحي . واظن هذه اول مرة يطأ فيها الرجل ارض الارسالية . فلم يكن المبشرون محبوبين في تلك الايام .

حياني الرجل بادب وباللطف العربي التقليدي ، ثم قال لي ان ابنه البالغ من العمر سبع سنوات مصاب بالحمى وعنده تقرحات تنز قيجا وان « الاطباء » المحليين اعتبروا حالته ميؤوسا منها . وسألني اذا كنت اقبل ان اعاينه ، وكانت

علامات وجهه تدل على اليأس والقلق الشديد • وادركت ان
الحاجة دفعتها الى طلب مساعدة المسيحيين •

وسرنا معا صامتين ، واخذنسي الى الجناح الخاص
بالنساء وادخلني غرفة ضيقة طويلة مظلمة وخالية من الاثاث
تقريبا • وشاهدت في نهاية الغرفة كومة بلا حراك ، فالتجعت
اليها • وتكلم الرجل لأول مرة منذ مغادرة منزلي : « هذا ابني
١٠ » ، ثم اراح عنه البطانيات التي كانت تغطيه كلية • وكان
منظر الولد محزنا بالفعل ، فقد كان هيكلا عظيما • وقد صرخ
الولد عندما شاهدني ، فكلمه بلطف ورقية • وافهمه انني
الرجل الوحيد في الكويت القادر ، بعون الله على شفائه •
واضاف بأنني احب المرضى ، وان كل ما اريده هو القاء نظرة
عليه •

ومنذ تلك اللحظة احببت هذا الاب الذي اصبح فعلا اقرب
صديق عربي الي •

وهذا الولد ، وتعودت عيناى الظلمة • ولسته فوجدت
حرارته مرتفعة جدا • وكان الولد جالسا وقد الصق ركبتيه
بنزقنه • وما لبثت ان وجدت ان ركبتيه متيبستان وانه لا يستطيع
مد رجليه • وأقار والده بأن ركبتيه متيبستان منذ عدة أسابيع
وانهما تزددان تصلبا • وكان فخذه واحد كتفيه ملفوفة
بقماش تفوح منه رائحة كريهة ناتجة عن تقيع مفاصل الولد
المريض • وعندما نزع ثياب الولد وجدت تقرحات تنز قيجا
على الموركين وعلى كتف واحد • وبدأ من الواضح ان هذه
التقرحات تصل حتى المفاصل •

ولم استعمل الادوات الطبية لفحص الولد • وكان الولد
هادئا تماما ينظر الي وفي عينيه تساؤل • وقد اعدت لف
وركيه وكتفه بالقماش برقة ، ثم غطيته بالبطانيات •

وسألني والده بعد ان خرجنا « ماذا تعتقد ؟ ان «الاطباء»
المحليين يقولون ان شفاؤه غير ممكن . فهل بإمكانك ان تعطيني
اي امل ؟ » .

واجبته «يا والدي ان حالته يائسة حقيقة وشفاؤه غير
ممكن . ولكن هناك شيئاً واحداً يمكننا عمله وهو شق القنجرات
وتنظيفها حتى اصولها . والمسألة مخاطرة ، فقد يموت الولد
على طاولة العمليات . ولكن هذه فرصته الوحيدة . واذا لم
نفعل له شيئاً فسيموت قريباً جداً .

نظر الي الوالد نظرة ثابتة للحظة، ثم تكلم ببطم ووضوح:
« يا دكتور ، انني اصدق كل كلمة قلتها . وابني بين يديك .
وسيشفى باذن الله » .

وقلت له « حسنا ، اريدك ان تحضر ابنك صباح الغد الى
المستشفى لكي نقوم باعداده للعملية . كما اود ان يظل بعد
العملية في المستشفى لكي يكون تحت اشرافي ليلا ونهارا » .
اعترض الرجل قائلاً : « لو سمحت يا دكتور ، انا لا اريد
ان يعيش ابني في المستشفى فاننا متأكد بأن صاحب البيت
المجاور سيسمح لنا باستعمال بيته . وارجو ان تحضره بعد
العملية الى البيت المذكور » .

ولم يكن ذلك الترتيب مثاليا ، لكنني قبلته لتجنب تعقيد
الموضوع . وتمت العملية صباح اليوم التالي . وقد انتابني
قلق شديد اثناءها لان الولد كان هزيلا وضعيفا بشكل يرثى له ،
وكانت حرارته مرتفعة . ولم يكن البنسلين او ادوية السلفات
معروفة في تلك الايام ولحسن الحظ كانت كمية صغيرة من
الكلوروفورم كافية لابقاء الولد غائبا عن الوعي ، فاشتغلنا
بأكبر سرعة ممكنة . ونقلناه بعد العملية الى المنزل المجاور
حيث بقي عدة اسابيع .

ولا اذكر الان عدد المرات التي اضطررنا فيها لاعادة اجراء الجراحة له ، لكن اعتقد انه كان اربع او خمس مرات نجحنا تدريجيا حتى في فك التيبس في مفاصل الركب ، وتمكن الولد من مد ساقيه وطيهما بشكل طبيعي تماما .

وكان صراعنا ضد مرضه طويلا ومريرا . فقد كان علينا تنظيف الجروح يوميا ، وكانت ازالة اللصقات المتسخة عملية شاقة . وما ازال اسمع الولد الشجاع وهو يصرخ « يا دكتور لا تضع لصقات اكثر من العدد اللازم » .

وكان الوالد يعبر عن تقديره بين الحين والآخر باعطائي مبلغا من المال . وقد كتبت في مفكرتي بتاريخ ١٢ يناير عام ١٩١٨ ما يلي : « لقد اعطاني والد الفتى المريض حتى الان مبلغ خمسمئة روبية مكافاة على معالجة ابنه » وكانت القوة الشرائية للروبية في ذلك الوقت ثلاثة اضعاف قوتها الحالية . وتكلفت المستشفى بسيطة جدا . وتلقيت دفعات اخرى من والد الفتى بلغت في مجموعها آلاف الروبيات . وكان دائما يدفع لي بالعملة الذهبية ، ومن تلقاء نفسه .

وبمرور الشهور تحققت المعجزة . وتماثل الفتى تماما للشفاء . وحل اليوم السعيد في منتصف صيف عام ١٩١٨ واخبرت الوالد ان ابنه قد تعافى وقام الوالد بالقاء خطبة قصيرة على ولده ، اشعر الآن بالاسف لعدم تسجيلها . ولكن فحواها كانت كالتالي :

« ولدي الصغير ، لا تنسى ابدا انك مدين بحياتك لهذا الطبيب فلا شك في هذا اطلاقا . وقد اصبح لك من الآن وصاعدا والصدان ، ولكن الطبيب يأتي قبلي . احبيه واخلص له طوال حياتك » .

وقد زرت بيتا كويتيا بارزا بعد ذلك بفترة وكان في غرفة الاستقبال اثنا عشر رجلا من وجوه المدينة من بينهم والد الفتى . وحال ما شاهدني بدأ يخبر أصدقاءه عن مرض ابنه وشفاؤه المثير للاعجاب . وكان يبدو ان واحدا او اثنين من الحاضرين لم يسمعا القصة من قبل . ولذلك قام الوالد بإرسال من يحضر ابنه . وعندما وصل الولد امره والده بخلع حلابسه لكي يرى كل الحاضرين الاثار التي تركتها سكين الجراح .

وعندما خلع الولد ثيابه ، قام والده بالمقاء خطاب مؤثر في الحاضرين حثهم فيه على التعامل معنا . وقد قال لهم : « الى متى ستظلون ترفضون التعامل مع طبيب الارسالية ؟ انكم تستمرون كما فعلت انا ، في وضع حياتكم وحياة ابنائكم بين ايدي المشعوذين المحليين الذين لا يفقهون شيئا في الطب . فقد قالوا جميعا ان ابني سيموت . وانتم تعرفون رأيهم هذا . وكنا نعتقد انهم على صواب ولكنهم كانوا مخطئين والحمد لله . انظروا الى ولدي انه قوي وسمين وبصحة جيدة . وكلكم تعرفون سوء حالته المرضية . من الذي شفاه ؟ هذا الطبيب ، بعد الله . وانا فخور بان يكون لي صديق مثله . فهؤلاء الاطباء العصريون يذهبون الى المدرسة والكلية ، ويتلقون العلم ويكتسبون المعرفة . أرجو منكم جميعا ان تصغوا لنصيحتي . ودعوا طبيب الارسالية يهتم بكم وبعائلاتكم عندما تحتاجون لاية عناية طبية » .

ومع مرور السنين توثقت علاقتي بوالد الفتى وتعمقت . وبدأ وكأنه يعرف ان بمقدوره مساعدتي على انجاح الخدمات الطبية الخاصة بالارسالية وانه مصمم على مساعدتي . وكان يؤمن بخدماتنا الطبية لدرجة تجعل دعمه لها امرا طبيعيا . وكان يحضر الي باستمرار المرضى من معارفه وأصدقائه الارستقراطيين ، ومن الفقراء المحتاجين الذين كان يجمعهم

من الاماكن العامة والشوارع • وكان من نوع الرجال المشغولين جدا والذين يجدون مع ذلك الوقت لعمل كل ما ييغون •

وكانت صداقته لا تقدر بثمن اذ فتحت لي الباب تلو الباب لبيوت كدت اياس من دخولها • واصبحت لي صداقات في كل هذه البيوت • وكان والد الفتى محبوبا ومحترما ومقبولا وكلمته مسموعة من الجميع نظرا لخلقه الحميد واستقامته • ولم اسمع في حياتي شخصا يطعن في نزاهته واخلاصه • وانني متأكد انه لولا مساعدة والد الفتى لاحتاجت الارسالية الاميركية الى عدة سنين اخرى كي تلقى القبول من غالبية سكان الكويت •

كنت يوم ١٢ فبراير عام ١٩٢١ مع زوجتي في بومباي في طريق عودتنا الى الولايات المتحدة لقضاء اجازتنا الثانية ، وكان والد الفتى في الهند في رحلة عمل • فقررت ان ازوره واودعه • وقد غادر قطارنا بومباي الى كلكتا الساعة التاسعة مساء وكنا نعتزم ركوب سفينة من كلكتا الى اليابان لزيارة اخت زوجتي التي كانت مدرسة في مدرسة « جوشي غاكوين في طوكيو » •

وكان الجو حارا تلك الليلة ، فوقفنا على رصيف محطة القطارات تحت مروحة كهربائية كبيرة • ولحنا في هذه الاثناء والد الفتى واحد افراد عائلته يتجهان الينا • وكان يتبعهما حمالان يحمل كل منهما سلة كبيرة على راسه وقد امر والد الفتى الحمالين بوضع السلتين على الارض وكانت احدهما ملأى بالزهور وفيها اكليل ورد • وأمرهما والد الفتى بدخول عربة القطار الخاصة بنا وتزيينها بالزهور ، وما ان انتهيا حتى كانت العربة شبيهة بحجرة العروس • ثم قام والد الفتى بوضع اكليل ورد على عنقي واكليل آخر على عنق زوجتي تبعا للتقاليد الهندية ، وتمنى لنا سفرة سعيدة بلغته

العربية الجميلة • أما السلة الثانية فكانت مليئة بكميات كبيرة من انواع الفواكه المختلفة كالمانجا والعنب والموز والبرتقال وغيرها ، وبكميات تزيد كثيرا عن كفايتنا في هذه الرحلة التي تستغرق ٣٦ ساعة •

وصرف • والد الفتى الحمالين ثم ظل معنا الى ان بدأ القطار بالتحرك • وبعد ان دخلنا عربتنا اغلق صديقنا بابها ، ثم ناولنا من النافذة عصا جميلة للمشى كتذكار أخير •

وقد جاء في مفكرتي بتاريخ اول مارس عام ١٩٣٢ :
« مات والد الفتى عند الفجر نتيجة لذبحه قلبية • وهو افضل وأقرب صديق لي في الكويت • مات عزيزا » • وقد كتبت اخر كلمتين بالعربية •

ولم تتخلل صداقتنا التي دامت خمسة عشر عاما اية شوائب او خلافات • فقد كان الرجل مسلما متعصباً ومخلصاً ، ولكنه على استعداد دائم للاقرار بحسنات وميزات الدين المسيحي ولتبيان هذه الحسنات لمن حوله • وكانت حياته العائلية مثالية ، وله زوجة واحدة • وكنت اعالجها كلما دعت الحاجة • وكانت سيدة محترمة • وكانا متعلقين ببعضهما البعض ورفيقين حقيقيين حتى نهاية حياتهما •

وقد شاهدت ابن صديقي الذي أشفيته من مرضه ، منذ سنة في الكويت • وهو يحب ان يراني دائما • ولا يخطر ببال من يراه بهذه الصحة والقوة انه كان قاص قوسين أو أدنى من الموت وهو صغير • وقد بدأ شفاؤه صعب

التصديق في ذلك الحين ، 'وما زال صعب التصديق بعد
ثلاثين سنة ' ولم افكر لحظة في بداية العلاج انه سيشفى
حقا ' ومع ذلك شفي واصبح سمينا وقويا ويبلغ عمره الان
اربعين عاما تقريبا ويحتل منصبا حكوميا هاما في الكويت
وكما يقول العرد. دائما « ليطل الله في عمره » .

مهد من الاسلام

اخذ شاب ايراني في اوائل عام ١٩٢٠ يتردد على المستشفى واقام صداقة مع حارسه وكان الايراني صوفيا ، وقد قارن مطولا بين حسنات الاسلام والمسيحية ، وارتاح للمسيحية اكثر . وقد تم تعميده يوم ٤ ابريل عام ١٩٢٠ ، يوم أحد ، الرب ، وتناول العشاء الرباني وحالما انتشر الخبر في السوق ، تحول الناس ضد الايراني . ورفض الجميع تشفيله ، وكان يجد صعوبة في شراء الشاي والسكر والمواد الضرورية الاخرى ، لان الباعة كانوا يرفضون بيعه . وأخذت فلوسه تقل تدريجيا ، وجاءني يطلب عملا .

ويؤمن كل مبشر بان على المهتدين الى الدين المسيحي ان يعتمدوا على انفسهم فمن الواضح انه حالما يعطى احد المهتدين قرضا او وظيفة من الارسالية ، يصبح عرضة للاتهام بان الارسالية قد رشته او اشتترته كي يصبح مسيحيا . وهذه المسألة صعبة الحل ، او لم يجر حلها على الاقل حتى الآن . فالجمهور يرفض تشفييل المهتدي او الساعي الى المسيحية ، وعندما يضطر الاخير الى قبول مساعدة الارسالية تصبح مسألة حقيقة ايمانه عرضة للشك ومما يعقد المسألة كون العديد من المتشردين يسعون لاعتناق المسيحية بهدف الحصول على وظيفة ذات راتب جيد .

وفكرت في هذه الامور كلها عندما طلب مني الايراني ايجاد وظيفة له . وابلغته ان قيمته كمسيحي في الكويت ستكون اعظم بكثير اذا استطاع الاعتماد على نفسه وتجنب مساعدة الارسالية المالية . فوافسق على كلامي لكنه قال لي : « ماذا يمكنني ان افعل ؟ فليس هناك من يشغلني » . وكنت اعرف ان قوله صحيح ، وانه بالرغم من المبادئ والنظريات يجب علي ان اقدم على مساعدته اذ لم يكن امامي خيار اخر .

وكان الايراني بارعا في العناية بالخيل وكانت هناك مناسبات عديدة شاهدها خلالها يهتم بحصاني . وطلبت منه العناية بحصاني فوافق على الفور . وتعود حصاني عليه واحب هو الحصان واصبحا صديقين حميمين . وقد علم الحصان كيف يتبعه ، وكان يأخذه في الشتاء بعد عودتي من مشوار طويل ويربحه نصف ساعة حتى يزول العرق عنه وتخف حرارته ثم يدخله الى الاسطبل . اما في الصيف فلم يكن هذا الاجراء ضروريا . ونادرا ما كان الايراني يستعمل اللجسام ، لان الحصان كان يطيعه عندما يتكلم اليه . ولم يكن الحصان ليتبعني بتاتا . اما الايراني فكانت له طريقته الخاصة في معاملة الخيل ، لانه كان شابا رقيقا ، وقد سمعت انه يمتلك مزرعة صغيرة ما بين بوشهر وشيراز في ايران ، لكنني لم اتأكد من صحة هذه المعلومات . وظل الايراني فترة سعيدا جدا في العمل معنا وساعدته على استرداد صداقته مع حارس مقرنا ، وهو ايضا مسلم جاء من شمال الهند وتحول الى المسيحية ، وبالإضافة الى ذلك ، كان الحارس يتكلم الفارسية بطلاقة . وقد ازلت تلك الصداقة الوحيدة عن نفس الايراني . ولكنهما كانا يختلفان بين الحين والآخر ، وكان الايراني السبب في الخلاف

باستمرار ، لان معاشرته صعبة حيث كان عصبي المزاج ، سريع الغضب فخورا بنفسه كثيرا • وكان يستغل معرفته بان الارسالية تخشى اغضابه لانه يسعى الى اعتناق الدين المسيحي لتأمين حاجات خاصة ، او للحصول على معاملة خاصة من الارسالية اذا اخطأ • ويعرف كل من له قدر بسيط من الخبرة في التعامل مع الساعين لاعتناق المسيحية هذه الامور جيدا •

وقد ازداد تصلب الناس تجاه الايراني وقاموا في ١٣ يوليو عام ١٩٢٠ بضربه وتمزيق ثيابه وسرقة ساعته في السوق ، لانه ارتكب الخطيئة التي لا تغتفر ، وهي تفضيل المسيحية على الاسلام • فليس هناك مجال للتساهل مع المرتدين •

وحضر الايراني في مساء اليوم نفسه لمقابلتي • كانت ثيابه متسخة وممزقة وروى لي قصته - التي بدت صحبتها واضحة - ثم ختم كلامه بقوله ان الحياة لم تعد تطاق في الكويت وانه مضطر لمغادرتها • ولم تكن لديه اية فكرة عما سيفعله او الى اين سيذهب • ولم يكن بإمكانه العودة الى قريته لانه اصبح مسيحيا •

فكرت في الامر بعد ذهابه ثم قررت ان اقابل كبير قضاة الكويت • ورغم تأخر الوقت ركبت حصاني واتجهت الى منزله • وحالفني الحظ لان الشيخ كان في منزله ولم يكن عنده احد ، وكان يستريح في حديقة منزله نظرا لشدة الحر ، وقد اصغى الى قصتي بتأدب وبشيء من العطف ، ثم قال لي : « لن يتكرر هذا • فانا اعتقد ان الديانة التي يعتنقها الانسان شأن خاص به ويبقى بينه وبين الله • وهذا العنف والضيق امر خاطيء • ارسل

لي الرجل غدا عندما تكون محكمتي منعقدة في العراء
وساتحدث حول المسألة » .

ولم اصدق اذني . فقد كانت هذه اول مرة في حياتي
اسمع رجلا عربيا هاما يعبر عن رأيه في هذا الموضوع بهذا
التسامح .

وأرسلت الايراني في صباح اليوم التالي تبعا لاوامر
الشيخ وقد فضلت ألا اذهب معه ، كما ان الشيخ طلب مني
البقاء بعيدا أثناء المحاكمة ، ورافق الايراني اثنان من موظفينا
وبعد ان حى ثلاثتهم الشيخ طلب من الايراني رواية قصيته
ففعل بأسلوب معتدل وبلهجة معقولة ، حسب رأي اللذين
رافقاه .

سأله الشيخ : « من الذي سرق ساعتك ؟ » فذكر
الايراني اسمه .

« وما هي اسماء الذين اعتدوا عليك ومزقوا ثيابك ؟ »
وذكر الايراني اسماءهم . وامر الشيخ حرسه بالذهاب الى
السوق واحضار كل المتهمين . وكان المدعي والمتهمون بعد
وقت قصير يواجهون بعضهم البعض امام المحكمة . وسأل
الشيخ الايراني : « من الذي اخذ ساعتك ؟ » فإشار الى
اللمس ، فسأله الشيخ :

« هل سرقت ساعة هذا الرجل » . واعترف الرجل بذلك
ثم اقر بانه اعطاها الى مومس في الليلة السابقة .

وقال له الشيخ : « حسنا ، ستدخل السجن وتبقى فيه
الى ان تعيد الساعة » وامر الحرس بإبعاده .

واستنطق الشيخ الرجلين أو الثلاثة رجال الآخرين

فاعترفوا بالتهمة الموجهة اليهم ، فأمر الشيخ بسجنهم .
والقى الشيخ كلمة مؤثرة في الجمع مشابها لما قاله لي
امس . وقد حذرهم قائلا : « تذكروا انني لن اسمح باساءة
معاملة اي انسان في الكويت بسبب عقيدته الدينية » ،
واستمر في التحدث حول نفس الموضوع مطولا .

وقد اخبرني المرافقان بما حدث ، بالاضافة الى عدد
كبير من الحاضرين . وظلت هذه القضية حديث الناس في
الكويت لعدة ايام .

وبقي الرجال في السجن اياما ولم يتمكن الحرس من
استعادة الساعة لان المرأة التي اخذتها اختفت . وشعر
الايراني بالكآبة عندما استمر احتجاز الرجال في السجن ،
وكان لشعوره سبب وجيه - فقد كان يعرف ان ما حدث
سيزيد من كره الناس له ، كما ان الرغبة المسيحية مكافأة
الشر بالمعروف كانت تفتعل في نفسه . وقصد الشيخ وطلب
منه الافراج عن السجناء . وقال للشيخ ان لهؤلاء الرجال
عائلات تعتمد عليهم في معيشتها . ولا بد ان الشيخ قد
استهجن طلب الايراني ، لكنه وافق عليه واطلق سراح
السجناء يوم ٢٢ يوليو . وقد قضوا تسعة ايام في السجن
وهي عقوبة متساهلة . وأمر سارق الساعة بدفع مبلغ ٤٤
روبية ، قيمة الساعة ، للايراني . وقد سمعت ان الايراني
قد اعاد المبلغ الى السارق ، لكنني لست متأكدا من صحة
هذه القصة . وعلى اي حال ، حصل الايراني على مقدار
من الثقة من جراء تصرفه المذكور .

وكان موقف الشيخ من الاضطهاد الديني فريدا في
تجربتي . فلم اختبر مثله قبيل حادثة الايراني او بعدها .
وانا مؤمن بان الشيخ كان صادقا كل الصدق مع نفسه

وانه عبر بتصرفه عن معتقداته ، ولكنه حسب علمي لم يكرر ابداء آرائه علنا . وقد اتخذ موقفا معاكسا تماما ، في الواقع ، في حادثة واحدة على الاقل اذ وقف الى جانب المتعصبين ضد احد المهتدين الى المسيحية . وليس هناك شك في انه خضع لضغوط كبيرة من قبل بعض وجهاء المدينة فحتى كبار القضاة من البشر لا تتوفر لديهم الشجاعة دائما للتصرف بحسب معتقداتهم . « اذا تركت الرجل حرا ، فانت لست صديق قيصر » .

ويرقد كبير القضاة الان في قبره ، لكنني عرفته جيدا وكانت هناك مناسبات عديدة تبادلنا فيها الحديث . وكان مسلما مخلصا وملتزما الى ابعد الحدود ، ولكنه كان في الوقت نفسه معجبا كثيرا بالمسيحية وباهتمامها بجوهر الامور بدلا من مظهرها .

ولم يستقر الايراني نهائيا في الكويت . وكان يصاب بحالات من الارتياح والضيق النفسي ، وكانت حالات انكماشه اكثر من حالات انفراجه . لست اذكر الان ، بعد ثلاثين سنة ، متى غادر الايراني الكويت ولماذا . فحياة المرتد عن الاسلام عبارة عن معركة قاسية ، لان كل الناس يقفون ضده . وقد قال بعض الناس انه عاد الى قريته في ايران . واذا كان هذا صحيحا ، فانا اتساءل هل ترى استطاع المحافظة على ولائه لدينه الجديد ام انه استسلم لضغط الظروف وارتد الى دين آباءه . وليس لدي شك في انه يؤمن في قرارة نفسه بان الدين المسيحي هو الايمان الحقيقي . وليحفظه الله اذا كان ما يزال حيا .

الصحة العامة في الكويت

لا يتوفر في المدينة الحديثة من اسباب الراحة ما هو اعظم من توصيل المياه الى بيوتنا وتركيب الادوات الصحية فيها ، فان مقدرتنا على فتح صنابير المياه والتزود منها بالمياه الحارة والباردة رفاهية لم يحلم بها اجدادنا ، فالنظافة التي نعرفها اليوم ، تأتي حتما بعد الايمان ، وكان توفرها مستحيلا منذ مئة عام .

وقد مكن توفر المياه في المنزل من دفعها الى المرحاض، مما وضع نهاية للمراحيض القديمة غير الصحية .

ولم تكن هذه الرفاهية ممكنة التحقيق لولا الاتفاق العميقة والمخفية والتي لا نعطيها حقها في التفكير ونسميها مجاري ، اذ تتدفق فيها كل الاوساخ من بيوتنا ، وهذه المجاري احدى معجزات عصرنا ، ولا يتمالك المرء نفسه من الاعجاب الكبير بالمهندسين ومخططي المدن عندما يفكر الانسان بمئات الاتفاقات العظيمة التي تنقل اوساخنا ومياهنا .

وينظر معظم الناس ، وخاصة الذين لم يعيشوا في الريف ، الى هذه التجهيزات على انها امر طبيعى ولا

يفكرون بما كانت عليه مدننا منذ مئة وخمسين عاما .

والمياه في الكويت مالحة وقليلة ، وهي بالتالي
ثمينة . وتوجد بعض الابار خارج سور المدينة توفر مياهها
صالحة للشرب ، ولكنها صالحة للشرب فقط لان فيها نسبة
معينة من عدة انواع من الاملاح . وعندما كانت مدينة
الكويت صغيرة ، كانت هذه الابار توفر المياه اللازمة
للشرب ، ولكنها غير كافية اليوم لان عدد سكان الكويت
اصبح ١٢٠.٠٠٠ نسمة . وفي الواقع ، كانت مياه هذه
الابار غير كافية خلال الخمس والثلاثين سنة الماضية ، عندما
بدأت المدينة تأخذ مياهها من شط العرب الكبير الذي يبعد
عنها ثمانين ميلا . ويوجد اليوم اسطول مؤلف من ثلاثين
سفينة شراعية مهمته الوحيدة الابحار ما بين الكويت وشط
العرب لنقل المياه . وقد تم منذ سنتين تدعيم هذا الاسطول
بناقلة حمولتها ٨٠٠٠ طن ، ومع ذلك فما تزال حاجة
الكويت الى المياه العذبة اكبر مما يتوفر لها .

ويجري هذه السنة ، عام ١٩٥٠ ، اعداد خطة محددة
لبناء معمل كبير لتحلية مياه البحر يتمكن من توفير المياه
لـ ١٢٠.٠٠٠ نسمة .

وتفتقر الكويت حاليا الى المادة الاساسية للوقاية
الصحية ، وهي الماء . ومن المحتمل ان تحل هذه المشكلة
باستعمال مياه البحر . فمن السهولة الاعتماد على مياه
البحر ، وهي صالحة تماما لاغراض الوقاية الصحية ،
ولاعمال البلدية مثل رش الشوارع بالماء . وان معمل

انابيب الاسبستوس* (الحرير الصخري) الذي أنشأته
حكومة البحرين حديثا سيحل مشكلة تآكل الانابيب
الحديدية . وبوجود مصنع التحلية الذي سيوفر مياه
الشرب والغسيل ، وبالاعتماد على البحر في المياه اللازمة
للاستعمالات الاخرى ستتمكن الكويت من توفير حاجتها
من المياه .

ويحتاج كل هذا الى مقدار كبير من المال ، ولدى
الكويت مقدار كبير من المال . وسيزايد ما لديها من
المال اكثر فأكثر في المستقبل . فقد شحن من ميناء الكويت
١٢ مليون طن من النفط عام ١٩٤٩ ، ولا تتردد الكويت في
انفاق الاموال على تحسين وتطوير خدماتها المدنية ، كما
تدل على ذلك انجازاتها في السنين الثلاثة الماضية . اذ
تمت اعادة تعمير مساحات واسعة من المدينة ، بما فيها كل
مباني الميناء والجمارك . وقد كلف المستشفى الحكومي
الجديد مبلغ مئة الف جنيه استرليني ، ويعتبر مفخرة لكل
من اسهم في بنائه .

ولكن نظام الوقاية الصحية الافضل غير متوفر في
الكويت حاليا . ويجري الان بناء مراحيض في عدد كبير
من المنازل . كما يجري تركيب هذه المراحيض فوق حفرة
عميقة وتكون في معظم الحالات عبارة عن خزانات عفنة لا
يجري تنظيفها الا فيما ندر . ولكن عددا كبيرا من الناس
يفضلون تنظيف الحفر بين الحين والآخر .

* الاسبستوس : الحرير الصخري ، معدن لا يحترق ولا يوصل
الحرارة ويكون على شكل خيوط تصنع منها الاقمشة والادوات
غير القابلة للاحتراق .

وهناك رجال يمتنون تنظيف هذه الحفر ، وعادة ما نراهم يتجولون في المدينة اثنتين اثنتين وينادون بأعلى صوته معلنين استعدادهم لتنظيف حفر المراحض ، ويحمل كل من هؤلاء سطلا وحبالا ، وما زلت اذكر جيدا رجلين كانا يمارسان هذه المهنة ، كان الرجلان فاقدَي البصر « ويجر كل منهما الآخر » عبر الشوارع « دون ان يقعا في الحفر » ، وكان منظرهما مألوفاً في الكويت لسنين عديدة .

وكانت عملية تنظيف هذه الحفر تنطوي على خطر كبير وهو خطر استنشاق الغازات السامة الثقيلة المتواجدة دائما في اسفل الحفر . ويتعرض العامل الى احتمال استنشاقه للغازات فجأة وغيابه عن الوعي . وعادة ما لا يتخذ عمال التنظيفات اية اجراءات وقائية لمجابهة حالة طارئة كهذه . فهم لا يضعون سلما داخل الحفرة ولا يحملون معهم حبالا اضافيا . ولا يمكن للعامل الذي خارج الحفرة ان يساعد رفيقه لوحده . ولا يكون هناك عادة من يساعده . ويموت الرجل الذي في الحفرة خلال لحظات .

وحتى في الحالات النادرة التي يتوفر فيها سلم وحبل ورجل ثالث اثناء الحادث يبدي الحاضرون ترددا طبيعيا في النزول الى الحفرة المظلمة . وفي الواقع ، ان انقاذ من في الحفرة صعب جدا حتى لو توفرت الرغبة التامة في انقاذه ، هذا اذا تركنا جانبا خطورة محاولة الانقاذ فان لف حبل تحت كتفي الرجل الفاقد الوعي والملقى على الارض والمغطى بالاوساخ يتطلب وقتا وقوة . وفي احيان كثيرة يفقد المنقذ وعيه قبل ان يتمكن من لف الحبل حول كتفي رفيقه ، وتكون النتيجة ميّتين بدلا من ميت واحد .

وقد سجلت إحدى هذه الحوادث التي حصلت في

الكويت في ١٤ اغسطس عام ١٩٢٠ . فقد وصلت الى المنزل وشاهدت سلما انزل في الحفرة ورجلا واقفا فوق ثاني اعلى درجة في السلم وهو يحاول تعليق جثة احد الرجلين اللذين ماتا في قعر الحفرة بواسطة حديدة لها خمسة اضلع ومربوطة بحبل متين . وقد تساءلت عن المدة التي قضاها الرجل في محاولته تلك ! ونظرت الى داخل الحفرة فابصرت جثتين في قعرها . وكانتا بلا حراك . وادركت ان ما حدث هو نفس ما يحدث دائما ، فقد استنشقت اول من نزل الحفرة الغازات السامة وفقد وعيه ، فاندفع رفيقه وراءه محاولا انقاذه فاختنق بالغازات السامة .

واسرعت باخذ الحبل والحديدة من الرجل وربطت نفسي تحت الابطين بحبل اخر ، ثم قلت للرجل انني سأنزل الى الحفرة وان عليه ان يمسك بطرف الحبل الذي يربطني جيذا ، واذا شعرت بانني اغيب عن الوعي فساخذ الحبل شدة قوية كي يسحبني فورا بمساعدة الاشخاص الموجودين معه . وعندما بدأت بالنزول حضر صاحب البيت راكضا وهو يصرخ : « لا تنزل يا دكتور ، احلفك بالله لا تنزل ، فقد مضى على وجود الرجلين في الحفرة نصف ساعة على الاقل ، وليس هناك امل في ان تجدهما على قيد الحياة . وانا لا اسمح لك بان تجازف بحياتك مقابل لا شيء ، وسيتمكن رجالي من اخراج الجثتين بواسطة الحبل والحديدة . بالله لا تنزل الى الحفرة » .

وبدا واضحا انه من السخافة بمكان ان انزل الى الحفرة في وضع كهذا ، فعدلت وبقيت انتظري حتى تمكن الرجال من سحب الجثتين بالحديدة .

وقد انتهزت الفرصة لأؤكد ثلاثة مبادئ :

(١) يجب ان يكون الرجل الذي ينزل الى الحفرة ملء السطل بالالوساخ مربوطا بحبل متين تحت ابطيه على ان يمسك رجلان قويان على الاقل بطرف الحبل لكي يتمكن من سحب الرجل المسمم بالمغازات فورا .

(٢) ان على عمال التنظيفات ان يعملوا كفرق مؤلفة من ثلاثة افراد ، على الاقل ، بدلا من فردين . فان رجلا بمفرده لن يتمكن من سحب رفيقه من الحفرة .

(٣) يجب ان يوضع في الحفرة سلم اثناء العمل ، وان تتوفر حبال اضافية للطوارئ .

ونلت مكافأة مالية مضاعفة على خدماتي . فقد تأثر الجميع باستعدادي للنزول الى ما بدا انه موت محتم من اجل من وصفوهما بأنهما صعلوكان لا يساويان شيئا .

وحضر رب البيت في اليوم التالي لمقابلة زوجتي ، وكنت حينئذ في المستشفى . وقد اخبرها القصة كلها وطلب منها أن تأخذ مني وعدا بالا انزل الى احدى حفر المراحيض . فقد كنت في نظره شخصا هاما واثمينا لدرجة لا يحق لي معها القيام بمخاطرة رهيبة كهذه . وقد تأثرت كثيرا عندما اخبرتني زوجتي بمجيئه وبمدى قلقه علي واهتمامه بسلامتي .

وقبل ستة اعوام من تلك الحادثة تقريبا ، اي فسي الرابع من اغسطس عام ١٩١٤ عندما اعلنت بريطانيا العظمى الحرب على المانيا ، حدث ان دعيت في الواحدة بعد الظهر ، الى منزل على بعد ميلين من الطرف الشرقي

للمدينة • كان الطقس حارا جدا وكنت اتناول الغذاء ،
فركبت حصاني وانطلقت • وفوجئت عند وصولي الى
المنزل بوجود اربعة مرضى بدلا من واحد • وكانت
اجسادهم ممددة على الشرفة بجوار بعضها • كان المرضى
ثلاثة شبان اخوة واختهم الصغيرة البالغة ثماني سنوات •
وكانت البنث وأحد الاخوة ميئين • واحد الاخوين الاخرين
غائبا عن الوعي والثاني يستعيد وعيه • وكان على الشرفة
عدة رجال قاموا باخراج الاربعة وحملهم الى المنزل • فما
الذي حدث ؟ يبدو انه قبل ان تتناول العائلة غذاءها افقدت
البنث الصغيرة ، فذهب احد اخوتها يبحث عنها فوجدها في
قعر بئر مهجورة • (هذا اجتهد طبعاً لان احدا لم يشاهد
الشباب حياً بعد ان ذهب للبحث عن اخته ، ولكن من المؤكد
تقريباً ان هذا ما حدث) • فنزل الاخ الى البئر بدون حبل
وبدون اية وسائل تمكنه من الخروج منه • وما لبث ان فقد
وعيه وسقط الى جانب اخته •

وافقدت العائلة الاخ والاخت ، فلحق بهما اخوان
آخرون • ووجدوا الجثتين في قعر البئر فهرعاً الى المنزل
لاحضار حبل • وعاد معهما عدة رجال •

ونزل الاخ الثاني ، ولكن بعد وصوله الى قعر البئر
وجد ان الحبل اقصر مما يجب بثلاثة أو أربعة اقدام ، فنادى
على الرجال كي ينزلوا الحبل أكثر ليتمكن من ربط جثته
اخته ففعلوا • لكنه فقد وعيه قبل ان ينهي ربط الجثة • وما
ان احضر حبل آخر حتى نزل الاخ الثالث بعد ان طلب ربطه
تحت الابطين لكي يسحبوه اذا بدأ يفقد الوعي •

وكان الاخ الثاني ما يزال يتنفس فأخرج اولاً ، ثم

اخرجت الاخـت ، ثم الاخ الاول ، وبسدت علامات الاعياء
على الاخ الثالث فتم سحيه بسرعه ، وكان هذا هو الاخ
الذي استعاد وعيه عند وصولي .

ولم يستعد الاخ الثاني وعيه رغم انه كان يتنفس ،
ومسات بعد وصولي بنصف ساعة ، وهكذا فقد اخوان
حياتهما في محاولتهما البطولية - لكن السيئة التنظيم -
لانقاذ اختهما الصغيرة .

والحقيقة المثيرة ، هي ان الحفرة كانت بئرا ولم تكن
مرحاضا ، وكان البئر جافا ، ولكن كانت في قعره بـقيـا
نفائيات واوساخ ، ويمكننا التخمين بأن البنت كانت تلعب
حول البئر عندما فقدت توازنها وسقطت فيه ، وقد استغرقت
كيف ان بئرا كهذه قد ولدت هذه الغازات السامة .

وقد مررت بعد بضعة اسابيع بقرب البئر فوجدته غير
منطى ، رغم ان تغطيته او ردمه - وهذا افضل - امر
سهل ، ويصعب على الغربي فهم هذه اللامبالاة المنتشرة
بين العرب ، فحضارتنا قائمة اساسا على الوقاية
والاحتياط .

وكل حادث عندنا يؤدي الى سعي دؤوب للحيلولة دون
وقوع حادث مماثل له ، وتنتشر في مصانعنا اللافات
المكتوب عليها « السلامة أولا » والتي تحذر العمال من
المخاطر المحتملة ، ويمكنني الاستطراء في الكلام عن هذه
النقطة الى ما لا نهاية .

ولم تكن الوقاية والحيطه متبعيتين في الجزيرة العربية
حيث كانت الامور متروكة على غاريها ، ومن المرجح ان

الدين الاسلامي القائل بالقدرية يشكل السبب الرئيسي في عدم المبالاة السائدة . فما هو « مكتوب » سيحصل وليس هناك مهرب من « القدر » . ويبقى للمسلم الامل الغامض بأن « الله سيرفق بنا » . وقد تشبع عقل العربي تماما بهذا الفكر حتى اصبح يستقبل مصائب الحياة وافراحها بهدوء . ومن الواضح ان الوقاية والحيلة تكونان غير منطقيتين في ظل هذا النوع من التفكير .

ومما يعزي النفس ان نعلم ان تغيرا تدريجيا قد طرأ على نمط التفكير هذا خلال السنوات القليلة الماضية . فهناك الان مقدار من التنبه واليقظة محل الخمول واللامبالاة القاتلة . وقد ازداد تأثير الطب الحديث - ومفتاحه « الوقاية » - في اوساط الكويتيين . واصبح التطعيم والتلقيح اكثر انتشارا . واصبح التجار يستصدرون بوالص تأمين على ممتلكاتهم تحسبا لأية أخطار محتملة .

ولا بد في الختام ، من الاشارة الى انه لم يمت اي عامل من عمال تنظيف المراحيض منذ وقت طويل ، ربما نتيجة للتغيير في النظرة الى الامور التي ذكرتها الان .

ولنأمل بأن يتحرر العرب قريبا من الايمان القاتل « بالقدرية » ، والذي يمثل العدو الشرس للتقدم الفعلي .

غزو الجراد

نزلنا ذات مرة ضيوفا على الشيخ مبارك في معسكره في الصحراء دلى بعد عشرة كيلومترات من الكويت ، عندما قطعت زيارتنا اسراب كثيفة من الجراد زحفت علينا واضطرتنا الى الرحيل من المعسكر ، وقد اكل الجراد كل ما صادفه في طريقه وكل ما حط عليه ، بما في ذلك الطعام والملابس وحتى الخيام نفسها ، وكانت مفادرة المعسكر نزوحا فعليا بالنسبة لنا اذ تركنا المكان باقصى سرعة .

وزارنا الجراد مرتين في تلك السنين المبكرة . جاءت في المرة الاولى اسراب طائفة حجبت نور الشمس وبقيت في المنطقة حتى وضعت بيوضها والتهمت كل ما يمكن التهامه في الصحراء . ولم يمض وقت طويل حتى شاهدنا الصحراء وقد تحولت الى بساط اخضر براق ، وادركنا ان البيوض قد فقست وان الجراد بيننا .

ومن الصعب المبالغة في وصف البؤس الذي سببته هذه الحشرة للكويت وضواحيها . فقد هاجمنا الجراد

الزاحف بأسراب لا تحصى يتألف كل سرب من نحو عشرة آلاف جرادة ، وكان يتجه شرقا باستمرار . كما كان بالامكان مشاهدة اجنحة الجراد وهي في بداية نموها . ثم وهي تكبر اسبوعيا وحتى تكتمل في الاسبوع السادس حيث يتمكن الجراد من الطيران بعيدا . ويحدث اثناء هذه الاسابيع ان تاكل الاسراب الاصلية التي تضع البيض كل ما في الصحراء ، بينما تترك للأسراب المولودة الاكتفاء باكل كل ما نما خلال تلك الاسابيع ، وغالبا ما يكون ذلك نباتات صغيرة .

ويهاجم الجراد ، اثناء زحفه على المدينة ، الحدائق فيأكل كل ما فيها من بطيخ وباذنجان وطماطم وغيرها . وكان المزارعون يعملون ليل نهار في اقامة حواجز من التنتك اللماغ المأخوذ من صفائح الكاز* وعندما تنفذ هذه الصفائح كانوا يستعملون الورق اللماع ، وبالتالي كان هناك اقبال كبير على نسخ المجلات الاجنبية مثل مجلة « اخبار لندن المصورة » (ذي ايلسترايتد لندن نيوز) ومجلة « المحيط » (سفير) وغيرها . فالجراد لا يقوى على تسلق الجدران الملساء .

وعندما وصل الجراد الى سور المدينة لم يحاول ان يلف حوله ، بل تسلقه رأسا . وكان علو طبقات الجراد في بعض انحاء السور يبلغ قدما ، واخذ الرجال يحرقونه بالمشاعل وقدر ما حرقوه بالملايين .

كما غزا الجراد الدكاكين في السوق واكل كل شيء تدخل فيه مادة السليولوز* . وسارع الباعة محاولين اخفاء

* السليولوز : مادة تؤلف الجزء الاساسي من جدران خلايا النبات .

بضائهم في صناديق ، وادراج وتغليفها بصفائح التئك
وبالورق اللماع .

وكان الجراد حين يصعد وينزل الجدران غير المغطاة
يتركها في حالة من العفن والقذارة التامة . اما وجود
الجراد في المنازل ، فكان يجعل الحياة فيها لا تطاق . وكان
المرء حين يدخل غرفته ليلا ويجد مخدته مغطاة بالجراد
الذي يفرز سائلا لزجا اخضر اللون فوقها وفوق كل ما يحط
به يشمئز الى حد يصعب وصفه بالكلمات .

وبعد ان يلتهم الجراد كل ما توفر من طعام ومواد ،
كان يتحول الى اكل بعضه البعض . وكان من المنفر رؤية
ثلاثة او اربعة جرادات يسحبن جرادة ضعيفة وينشرن
ارجلها ثم يبتلعنها بسرعة فائقة .

وقد فرحنا فرحا لا يوصف عندما اكتملت اجنحة
الجراد وطار بعيدا عنا ، رغم انه خلف الدمار وراءه ! فقد
اكل الجراد حتى سعف النخيل فبدت كاذيسال الخيول
الحليقة والمعلقة على عامود . وفقدت الطرفاء* لمائها
وماتت الخرفان والماعز جوعا بينما جاعت الجمال .

ولا عجب ان العبرانيين كانوا يرتعدون من الجراد :
» جيشي للعظيم الذي ارسلته اليكم » .

واقضل وصف كتب حول طاعون الجراد جاء في كتاب
جويل ، الفصلين الاول والثاني :

* الطرفاء : شجرة جنبه نخيلة الاغصان .

« وغزت ارضي امة قويسة لا يمكن عدها ، واسنانها
كاسنان الاسد » .

« فسد الحقل ، والارض في حداد فقد ضاع القمح » .
« كيف تنن الوحوش : قطعان الغنم محتارة لانها لا تجد
المرعى » .

« يوم مظلم وحزين قوم اقوياء وعظام » .
« النار تلتهم ما امامهم وخلفهم ارض عراء جدباء ،
ولن يفلت منهم شيء » .

« ان ظهورهم كظهور الخيول ، وكالخيالة سيجرون » .
« سيركضون كالرجال الاقوياء : ويتسلقون السور
كالمحاربين ، وسوف يدخلون من النواقد كاللصوص » .

وهذه بعض المدرر من كتاب جويل ، ولكن كل بيت فيه
يستحق الاستظهار . والفصل في الواقع قطعة ماثورة عن
الجراد .

وما زال الجراد المناضج والمكتمل الجناحين يعتبر اكلة
شبهية عند العرب . فهم يسلقونه ويضيفون اليه قليلا من الملح
ثم يتركونه يجف . ويكون طعمه عندئذ كطعم الكستناء المشوية.
ويجري جمع الجراد من الصحراء وجلبه بكميات كبيرة الى
المدينة حيث يوضع في سلال ويعرض للبيع في السوق . وقد
اكل حنا المعمدان (احد اتباع المسيح ورفيقه) الجراد مع
العسل . وذكر الجراد في كتاب لفيتيكوس على انه طعم
حلال . ووصف الجراد في هذا الكتاب كما يلي : « المخلوقات
الطائرة الزاحفة ذات الارجل التي تعلق القدمين لتتمكن من
القفز على الارض بواسطتها » . (لفيتيكوس : ١١: ٢١ و ٢٢) .

وقد باشرت « لجنة الجراد » برئاسة البروفسور يوفاروف

من المتحف البريطاني منذ عشرين سنة اجراء بحث دقيق في
الجزيرة العربية حول الجراد ، كما قامت في الوقت نفسه
باتخاذ الاجراءات الواقية منه والمؤدية لتدميره . وما زلنا
نأمل في ان تكلل جهودهم بالنجاح لتخليص الجزيرة العربية
من هذا البلاء المدمر .

الكويت تنشئ مستشفياتها ومدرستها

ومع توسع خدماتنا الطبية وازدهارها وازدياد شعبيتها، ارتفعت في الكويت اصوات تنادي بعدم اعتماد البلد على الاطباء المسيحيين وعلى المستشفى المسيحي في معالجة مرضاها . ودعا اصحاب تلك الاصوات الى انشاء مستشفى كويتي والتي احضار طبيب مسلم لادارته والاشراف عليه .

وتم في اواخر عام ١٩١٤ او اوائل عام ١٩١٥ تشكيل جمعية لتحقيق هذا الهدف اطلقت على نفسها اسم « الجمعية الخيرية الاسلامية الكويتية » . واختارت اللجنة منزلا فسيحا على البحر كمقر للجمعية ، وقامت بتأثيثه كمستشفى وكعيادة . كما قامت بشراء الاجهزة والادوات الطبية والادوية . واستقدمت بعد ذلك طبيبا تركيا للاشراف على المستشفى .

ولم ينجح مشروع الجمعية بتاتا . فقد قيل ان الطبيب كان يسرف في الشرب ، وانه لم يكن كفؤا ، وكان كسولا ويكره العمل .

ولم يكن اي من اعضاء الجمعية الذين اسسوا المشروع على دراية بالطب ، ولا بمهنته الطبية ، وبالتالي كانوا عاجزين

عن الاشراف على مشروع من هذا النوع ، واخيرا ، لم يكن الشيخ مبارك متعاطفا مع المشروع . فقد كان يعتقد ان الكويت ليست مهيتة بعد لاقامة مشروع بهذا الطموح . وكان ، بالطبع ، محقا كل الحق في اعتقاده هذا .

وتازمت الامور عندما جرى اتهام الطبيب التركي بارتكاب خطأ مهني في عمله . فطلب الشيخ مبارك الرجل وامره بمغادرة الكويت . وكانت تلك نهاية ما كنت اسميه «مستشفى المعارضة» . ولم يسبب لنا ذلك المستشفى اي ضرر . وقد اظهر مستواه المتدني ، في الواقع ، مدى ارتفاع مستوى مستشفانا . وكانت المقارنة بين المستشفيات خير دعاية لنا .

وقد كتب آخر فصول القصة في الثاني من مايو عام ١٩١٦ ، بعد مضي وقت طويل على اغلاق « مستشفى المعارضة » . (وكان الشيخ مبارك قد توفي منذ ستة شهور) .

فائناء زيارة احد الشيوخ الشبان لي اثirt مسألة «مستشفى المعارضة» بشكل عرضي . وقال لي الشيخ اثناء تبادل الحديث ان مبنى « مستشفى المعارضة » مليء بالاثاث والمعدات والاجهزة ، ثم سألني : « الا ترغب في اخذها كلها ؟ انها تهترىء ولا ينتفع بها أحد » .

وشكرته على عرضه واعربت عن قبولي للعرض . وحضر في اليوم التالي الى مستشفانا موكب من الرجال والحميز المحملة بكل اثاث وتجهيزات « مستشفى المعارضة » . ومن بين الاجهزة التي حصلنا عليها جهاز (ميكروسكوب) ممتاز ، رغم انه غير معد لاداء عمل المستشفى لانه لم يكن مزودا بعدسة خاصة بالغمر في الزيت . وكان الجهر ما يزال في علبته وبدا واضحا ان العلبة لم تفتح . والجهر موجود الان ، حسبما اعلم ، في مدرستنا في البصرة حيث يستعمل في

الاعمال المختبرية البسيطة . اما بقية المعدات والادوات فبدا واضحا انها قد اختيرت من قبل رجل لا تتوفر لديه المعرفة اللازمة لشراء المعدات والادوات الطبية .

وكانت المحاولة الاصلية لبناء مستشفى كويتي عبارة عن طموح كبير تم تحقيقه الان ، عام ١٩٥٠ ، بشكل لم يحلم به رجال عام ١٩١٤ . وقد شهد عام ١٩١٤ بداية تنبه عامة الناس لاحتمال وجود النفط في بلدهم . فقد بدأ الجيولوجيون مسحهم للكوييت في ذلك العام . ومن المشكوك فيه ان يكون اي انسان قد فكر حينئذ بوجود هذه الكميات الهائلة من النفط في الكوييت، والتي اكتشفت منذ بضع سنين . ولم يكن لدى الكوييت مال وفير عام ١٩١٤ .

ولدى كوييت اليوم مستشفى مدينة عظيم المظهر . وقد كلف بناؤه مبلغا كبيرا من المال ، ولكن الكوييت اليوم غنية . فعائدات النفط تكفي لسد كل احتياجاتها ومتطلباتها .

وتشبه قصة بداية نشاطنا التعليمي في الكويت وتأثيره على المدينة قصة نشاطنا الطبي الى حد كبير . وقد شعر زميلي القس اي . اي . كالفرلي منذ ارساله الى الكويت عام ١٩١٢ بأهمية النشاط التعليمي الحديث، ولم يكن هناك تعليم حديث في الكويت في تلك الايام . وكان النشاط التعليمي يقتصر على المدارس القرآنية .

وقد ازدهرت مدرسة الدكتور كالفرلي منذ انشائها ، فقد اعطى للولاد العلم الذي كانوا ييغونه ، وبالتالي كان نجاحه حتميا . وكما حدث لنشاطنا الطبي ، ازدادت شعبية نظامنا التعليمي ، مما اثار حساسية اوساط معينة في الكويت . فاخذ هؤلاء يقولون : « لا يمكننا ان نقبل قيام المبشرين المسيحيين بتعليم ابنائنا » وقبل ان نعي حقيقة ما يجري اصبح اولادنا

مسيحيين • اننا نقوم بمخاطرة ليس هناك ما يبررها يجب ان ننشئ مدارسنا الحديثة الخاصة بنا ، •

وكان المحرض الرئيسي زعيم عائلة كويتية كبيرة ، وقد وضع كل ثقله في الميزان ضدنا • ونظم الرجل حملة لجمع التبرعات تمكن بنتيجتها من انشاء مدرسة المباركية • وما زالت هذه المدرسة تنمو وتزدهر •

وكان اول مدير للمدرسة مصريا ، وكانت نظرفته للامور عصرية ومتقدمة ، بل في الواقع عصرية جدا بالنسبة للكويت • فقد علم الكويتيين ان الارض كروية، وانها تدور حول الشمس، وكل هذه الامور المبدئية التي نسيناها منذ زمن طويل والتي كانت موضع جدال لا ينتهي في الكويت •

وقد اثارت التعاليم الجديدة المحافظين ودفعتهم للتنديد بكل الهرطقات الموجودة في تعليم المدير المصري • واضطر المصري في النهاية الى مغادرة البلد ، واستقدم مكانه تركي قديم صاحب صوت جهوري من ازمير • وقام التركي بتدريس الافكار البالية بالطرق القديمة • واشبعت رغبة النقاد وتابعت المدرسة طريقها الذي يعتبر نسخة طبق الاصل عن المدارس السابقة •

ولكن المدير المصري انتقم بدوره، بعد بضعة سنين، اذ تمت اعادة النظر في المنهج الدراسي وتم تغييره نحو الاتجاه الحديث • واصبح المصري مشهورا ، وهو الان سفير لدى الحكومة البريطانية من قبل جلالة الملك عبد العزيز بن سعود • وقد احتل هذا المنصب لعدة اعوام واثبت انه دبلوماسي قدير •

ومن الطريف ان نذكر اننا كنا نعرض كرة جغرافية

ارضية صغيرة في « بيت الكتاب المقدس » الذي افتتحناه في الكويت . وقد اثارت هذه الكرة جدلا لا نهاية له من جانب الزوار ، وكان الجدل يحتدم احيانا . فكان احد الزوار عادة يسأل : « هل تصر على ان الارض كروية ؟ » ويتفجر الجدل ففي تلك الايام كان القول بان الارض كروية يعتبر خروجا على الدين . واضطررنا اخيرا الى اخفاء الكرة الجغرافية الارضية تجنباً للمشاكل .

وقد تغيرت الامور كثيرا خلال السنين الماضية . فالكويت تمتلك اليوم ، عام ١٩٥٠ دأثرة تعليم ممتازة تشرف على عدة مدارس ليست للاولاد فقط وانما للبنات ايضا . وتهتم هذه المدارس بتعليم العرب والايروانيين ، السنة منهم والشيعية . واصبح التعليم في الكويت يقف على قدميه اليوم ، ولكن يجب الا ننسى ان الدكتور كالفري كان الرائد في هذا المجال .

وقد اغلقت مدرسة كالفري لاسباب اقتصادية ولكن بعد ان اتم نثر بذوره وزرع نبتته التي يشاهد الجميع ثمارها حاليا . ومع ذلك ، فمن المؤسف انه جرى اغلاق « مدرسة الكويت » التي قدمت خدمات ممتازة بإدارة الدكتور كالفري والدكتور بارني . ويتصف التلاميذ الذين درسوا في مدارس ارساليتنا بشخصية وسلوك مميزين . فننفوذ جون فان اس وفرد بارني وادرين كالفري يترك اثره دائما على كل تلميذ يلحقه .

وانني اعتقد ان الارسالية ارتكبت خطأ هائلا عندما قامت باغلاق مدارسها في البحرين والكويت . فليس هناك في الدنيا تعليم افضل من التعليم المسيحي وليست هناك كارثة

في الدنيا اكبر من تحويل مدارسنا في اميركا وانجلترا الى
مدارس علمانية •

اخيرا ، دعونا نتذكر بوضوح ان المبشرين هم الذين
وضعوا اسس كل النشاط الطبي والنشاط التعليمي الذي
تسطع انواره فوق الكويت اليوم •

كلمة وفاء للأرسالية العربية

ان لمهنة الطب في الجزيرة العربية، كما في معظم البلدان، مكانة خاصة * وهناك مثل عربي يضع الطب قبل الدين * وحتى كلمة دكتور بالعربية (حكيم) تعني الرجل الحكيم * وهكذا فالطبيب في الجزيرة العربية رجل معتر يستشير به الناس ويستمعون الى نصيحته ، وله نفوذه في المجتمع وامامه عدة فرص للتأثير على الرأي العام ولوضع أسس التقدم المسيحي بطريقة غير مبتذلة تقضي على التعصب الديني والتمييز العنصري ، وان امكانات عمل الطبيب المسيحي للخير في الجزيرة العربية ، اذا توفرت لديه الشخصية الملائمة ، امكانات غير محدودة *

وقد جاءت الافتتاحية التالية في مجلة الارسالية العربية الفصلية « الجزيرة العربية المهمة » عدد ١٤٢ - يوليو - اغسطس - سبتمبر عام ١٩٢٧: « المقي السير ارنولد ويلسون، المندوب السامي السابق في العراق وصاحب الخبرة الطويلة في شؤون الخليج ». « الفارسي » السياسية ، محاضرة في الجمعية الجغرافية الملكية في لندن في يناير حول موضوع « السياسة في الخليج » « الفارسي » * ونحن ننقل مقطعاً من

باب الشرق الادنى والهند الذي علق فيه حول عمل الارساليات
في الخليج والعراق :

« لا اود ان اتكلم عن الخليج » الفارسي « بدون ان اسمع
شهادة لصالح العمل الرائع الذي يقوم به المبشرون . وانا لا
اقول انهم يربحون المهتدين الى المسيحية باعداد كبيرة ، ولكنهم
نجحوا - بمساعدة المستوى الرفيع من الاستقامة الذي اظهره
المسؤولون والتجار البريطانيون - في احداث تغيير عميق في
النظرة العربية الى المسائل الاخلاقية . فالعربي محمدي اولا
وعربي ثانيا ، مثل الشعوب الاسلامية كافة ، وهو يعتبر
الاوروبيين مسيحيين قبل اي شيء اخر . وهو يعرف ، ربما
افضل مما نعرف نحن ، بان جذور تصرفنا تكمن في ديانتنا .
وهو يحترم تصرفنا اكثر من احترامه لتصرفه . وهو لا يحتقر
الذين يندرون حياتهم لنشر الدين المسيحي بالمثل والتعليم ، بل
يقدرهم ويحترمهم كثيرا . وليس هناك نفوذ في الخليج
« الفارسي » اقوى من نفوذ المبشرين فيما يتعلق بمسائل
الخير ، ولا يحترم الناس اي اوروبي مثلما يحترمون المبشرين
امثال زويمر وفان اس وهاريسون ، وماليري ، اما السنين
يشجبون الارساليات الاجنبية فهم غير منصفين مع انفسهم
ويضرون بسمعتنا الطيبة » .

وكم ترقص قلوب الاطباء بنيت وهاريسون ودام فرحا
وهم يفكرون بالكويت والرياض وعنيزة . فمجرد ادراكهم
بانهم فتحوا ابوابا مغلقة لقرون مكافاة تستحق جهد اي انسان
لانها مكافاة الرائد التي تضعه في مصاف ليفينغستون وهنري
مارتن ، وروبرت هاريسون وكل هؤلاء الرجال العظام .

والمكافأة هنا اكبر لان العمل يتم بدفع قوة الحب • فهؤلاء
الرجال لم ينطلقوا بحثا عن الشهرة والثروة ، وانما تخلوا
عن الشهرة والثروة وتبعوا الرب • وقد اثبتوا حقيقة الوعد
« في هذه الدنيا مئة ضعف » ، وهم حتما سيثبتون فيما بعد
الجزء الثاني من الوعد المزدوج •

ملحق

- ١ -

ان مراقبة الدقة التي يستخدم بها صانع السفن الكويتي ادواته تعتبر درسا في حد ذاتها فهو يضرب ضربات متناهية الدقة على مساحة صغيرة تبلغ جزءا من البوصة ، وبعد ان ينتهي من عمله على بدن السفينة الجاهز نجد سطحه مصقولا وكأن الات دقيقة قد قامت بالعمل وليست يدا بشرية . ويستخدم صانع السفن ادوات محدودة تتألف من قدومين او ثلاثة ذات احجام متفاوتة ومطرقتين او ثلاثة ذات احجام متفاوتة ايضا ، والثقاب المقوس الشرقي المعروف ، ومنشارا او منشارين .

وتصنع كل المسامير المستعملة يدويا من الحديد المطاوع ، حيث يقوم الحداد بطرقها مسمارا مسمارا . وهذه المسامير كبيرة اذ يتراوح طول كل منها ما بين تسع بوصات وثلاثة اقدام ، وهي مربعة الشريحة وتنتهي برأس كبير اشبه بالفطر . ولا يستعمل مسمار البرشام في بناء السفن ، وانما يجري طرق المسامير العادية في ثقب محفورة بدقة متناهية ، ثم تلوى من الداخل بعد ان يتم ادخالها في الثقب . وربما يكون استعمال

المسامير العادية مصدر ضعف للسفينة لان اصطدام الامواج بجوانبها حين يكون البحر عاتيا يسبب تسربا بسيطا من خلال ثقب المسامير، وهذا على الاقل ما اخبرني به بحارون انجليز. ويعتبر صانع السفن الكويتي هذه التهمة مردودة وباطلة .

وتصنع دعامات هذه السفن - وهي عادة كثيرة - من الاقواس الطبيعية . ولا تسير هذه السفن بقوة الدفع البخاري. ويبدو تركيب هذه الدعامات فوق جسم السفينة المقوس مستحيلا ، ولكنه في الواقع يتم بسهولة .

ويعتبر بناء السفن في الكويت، في الواقع مسألة غريزية، ولا يدرك صانعو السفن الكويتيون مدى مهارتهم . وصناعة السفن تراث ورثه الكويتيون جيلا بعد جيل . ويستورد كل الخشب المستعمل في بناء السفن من ملابار في الهند ، وتقوم السفن الكويتية بنقله من ملابار الى الكويت ويستعمل خشب « التيك » في صنع ارضية السفينة وجوانبها، بينما يستعمل خشب الادغال للدعامات ولرافدة القص ومقدمة السفينة ومؤخرتها - رغم ان هذه الاجزاء الثلاثة الاخيرة تصنع احيانا من خشب التيك . ويذكر الكتاب والقصاصون احيانا ان صواري السفن تصنع من خشب التيك ، ولكن هذا ليس صحيحا . فخشب التيك ليس مرنا ، وهو ينكسر بدلا من ان ينحني اذا استعمل كصارية وخشب الصواري خشب عادي خال من العقد ويكون لونه زهريا عند قطعه ثم يصبح كلون الكستناء الاسباني . وخشب صواري السفن الكبيرة باهظ الثمن ، اذ تكلف الصارية الرئيسية مئتي جنيه استرليني وربما اكثر .

وكانت كل الحبال ، العادية وال ضخمة التي تستعمل في

شد السفن الى البر ، مصنوعة من الياف النخيل بواسطة الات بدائية كان بالامكان مشاهدتها على طول الساحل في العام ١٩١١ اما اليوم فنادر ما يشاهد المرء الات صنع الحبال هذه ، لأن كل الحبال أصبحت تستورد من الخارج وهناك جزء واحد من النخلة يستعمل لصنع الحبال وهو الفروع الطويلة الخشنة التي تحمل عناقيد البلح • ويجري عادة طرق هذه العناقيد بالطرقة الى ان تصبح رخوة ويسهل تفريغها • وتكون الحبال التي تصنع من فروع النخل قوية وخشنة وقاسية على اليدين خاصة عندما تكون جديدة •

وتصنع الاشرعة يدويا بالمطبع • ويقوم صانعو الاشرعة برسم تصميم تقريبي للشرع المطلوب على الارض ، توضع على اساسه قطعة من قماش القنب* وتقطع بشكل متواز الى قطع عرض كل منها ثلاثة اقدام ثم يقوم الخياطون بوصل القطع المطلوبة بالابر بسرعة عجيبة • وعندما يكون الشرع كبيرا يجري تشغيل عدد كبير من الخياطين في حياكته • وغالبا ما ينتهي العمل في الشرع في يوم واحد ولم اشاهد اي شرع متروك ليلا لاتمامه صباح اليوم التالي الا في مناسبات نادرة •

ويبدو القماش المستعمل في الكويت هزيلا او مهلهلا اذا ما قيس بالقماش المستعمل في الغرب والذي تجري حياكته بشكل متين ومتماسك • ويستورد الكويتيون قماش القنب من الهند وهو رخيص نسبيا ويخدم مدة طويلة • وتعتبر اشرعتنا المغربية ، في الواقع ، اكثر سمكا بالنسبة للمراكب الصغيرة • ولا أعرف الى اي مدى درس المنتجون الغربيون سوق الاشرعة

* قماش القنب : قماش تصنع منه الخيام والاشرعة •

العربية ، ولكنني لم اشاهد سوى اشرعة انجليزية في الكويت
كانت اثقل وربما اعلی من الاشرعة الهندية .

ولا يطلي الكويتيون سفنهم بالدهان . فهم يطلون الاجزاء
المسفلی من جوانب السفينة بمزيج من الكلس وزيت السمك .
ويطلون الاجزاء العليا من جوانبها بالزيت فقط . ويضفي
منظر السفينة الجديدة بلمعانها وبريقها وباشرعتها الجميلة
البهجة على نفوس محبي السفن وهم يشاهدونها تغادر الميناء
لاول مرة .

ووحدة القياس المستعملة في سفن الشحن الكويتية هي
«كيس الرز سعة ١٢٠ (مائة وعشرون) باوند» فتسمع الناس
يتكلمون حول مراكب حمولة ٢٠٠ كيس وحمولة ٣٠٠ كيس
وهكذا . اما حمولة السفن العابرة للمحيطات فتتراوح ما بين
١٠٠٠ و ٥٠٠٠ كيس . والبواخر التي تحمل ٥٠٠٠ كيس
قليلة ، واغلب البواخر الكبيرة تحمل ما بين الفی وثلاثة الاف
كيس .

وقد تم منذ بضع سنين بناء سفينة استثنائية كبيرة في
الكويت حمولتها ١٢٠٠٠ كيس . وكان في السفينة محرك
اضافي . ولا اعلم اذا كانت تلك السفينة مجزية تجاريا .
وقد آلت ملكيتها الى الملك بن سعود ، والترتيب المتبع عادة
في اشرعة السفن في الخليج « الفارسي » يستعمل الشراع
المثلث الشكل ، مع بعض التعديلات التي تدخل عليه في بلاد
الخليج المختلفة .

* باوند : رطل انجليزي يساوي ٤٥٣ غراما تقريبا .

ويجرى تجهيز البواخر العابرة للمحيطات تجهيزا حسنا للملاحة ، ويتسم تزويدها بصناديق بوصلة حديثة وبخرائط حديثة ايضا . ويعرف ربابنة السفن العرب البحار معرفة تامة ، ورغم انه هم لا يقرأون الانجليزية فهم يستخرجون معلومات كثيرة من الخرائط المكتوبة بالانجليزية ويتمكنون من رسم صورة للساحل وتحديد الاعماق بالقامات تحديدا دقيقا . ويعرف بعض الربابنة العرب كيف يستعملون آلة السدس* ولكن سفنهم غير مجهزة بالكرونومتر* وبالتالي لا يمكنهم استنباط الخط الطولي اطلاقا ولكن معظم ملاحه الربابنة العرب ملاحه ساحلية ، وبالتالي فان معرفتهم «-لاعتداد الارض » وللنجوم الرئيسية تمكنهم من قيادة مراكبهم بدقة لا تجارى . وفضل كتاب حول هذا الموضوع الشيق كتاب ابنساء السندباد مؤلفه الان فيليبير ، الذي قام بعدة رحلات بحرية على متن السفن الكويتية ، من بينها رحلة مباشرة من عدن الى ساحل افريقيا الشرقي . (وسأتهي هذه الاطروحة حول السفن العربية بالاشارة الى الاعتقاد السائد في الكويت بانه اذا قفزت النساء العربيات على عارضة سفينة جديدة فانهن يضمن حملا فوريا . واعتقد ان هذا الاحتفال يمارس ليلا لانني لم اشاهد أي امرأة تقفز على عارضة سفينة جديدة) .

- ٢ -

توفي الشيخ مبارك العظيم يوم ٢٨ نوفمبر عام

.....

- * آلة السدس : آلة لقياس ارتفاع الاجرام السماوية من سفينة او طائرة متحركة .
- * الكرونومتر : اداة لقياس الزمن بدقة .

١٩١٥ ، بينما كنت في البحرين لحضور اجتماع ارساليتنا السنوي . وبما انه كان يسبق عصره بجيل ، فلم يقدر عظمته سوى قلة من رعاياه . وكان الشيخ يهتم كثيرا بفن الحرب ، وكانت براعته في استعمال الخرائط تذهلني ، وحال ما دخلت تركيا الحرب الى جانب بريطانيا كان اول عمل قام به مبارك انزال راية « النجمة والهِلال » (العلم التركي) عن سارية قصره ورفع علم أحمر مكانه عليه كلمة « الكويت » بحروف بيضاء وهذا العلم ما يزال حتى الان (عام ١٩٥٠) علم الكويت . وكان مبارك يكره تركيا التي كانت خنجرا في خاصرته لسنين طويلة ويتشوق الى رؤيتها مهزومة هزيمة ساحقة . وقد شعر بمرارة وخيبة امل كبيرتين عندما سمع بالانتصارات التركية في بداية الحرب . وكم كان سيسعد لو عاش ليرى تغير مجرى الحرب وهزيمة القوات التركية .

وخلف مبارك ابنه الكبير ، جابر ، ولكنه لم يعيش سوى اربعة عشر شهرا اثر توليه الخلافة ، اذ توفي في ٥ فبراير عام ١٩١٧ .

وهناك حادثة وقعت اثناء حكم جابر وما تزال عالقة في ذهني . فقد وصل ابن سعود الى الكويت في ١٩ نوفمبر عام ١٩١٦ على متن طراد بريطاني يصحبه السير برسي كوكس الممثل الاول للحكومة البريطانية . واقام الشيخ جابر حفلة رسمية لهما في اليوم التالي في قصره ، قام خلالها السير كوكس بتقليد كل من ابن سعود والشيخ جابر وساما بريطانيا رفيعا . واحضر الشيخ جابر يوم ٢١ نوفمبر ابن سعود والشيخ خزعل - شيخ محرمه - لزيارة مستشفانا - وقام الثلاثة الكبار بعد ذلك بزيارة منزلنا وتناول الشاي معنا . وشعرت انا وزوجتي بفخر عظيم ونحن نستقبل « سيد الجزيرة العربية » في بيتنا . وما زلت ارى ابن سعود وهو جالس في غرفة

استقبالنا وعلى ركبته قطنتا الفارسية البيضاء الجميلة • وما زلت اذكر حديثا دار بين الثلاثة الكبار حول الشفاء الالهي • وقد اثار الحديث اهتمامي بشكل خاص لان ابن سعود كان مؤمنا صادقا • بينما كان خزل حسبما لمست من حديثه ، شكوكيا* الى حد كبير • ولم يشترك جابر في الحديث • وانا اعتقد انه لم يكن راغبا في الدخول في جدال مع ضيفيه الكبيرين • وقد اتخذ ابن سعود موقفا متشددا في صالح الشفاء الالهي •

خلف الشيخ جابر على عرش الكويت ابنه الثاني سالم الذي تولى الحكم ما بين عامي ١٩١٧ و ١٩٢١ •

وكان حكم سالم مضطربا • فقد اختلف مع ابن سعود العظيم حول مسألة التجارة والضرائب وتخللت ايام حكمه كلها حرب خفية او علنية مع ابن سعود • وليس هناك ادنى شك في ان ابن سعود كان سيستولي على الكويت لولا المساعدة البريطانية الفعالة جوا وبحرا التي قدمت لسالم • وقد اختلف سالم ايضا مع الحكومة البريطانية اثناء الحرب العالمية الاولى حول مسألة « التبادل التجاري مع العدو » وكان سالم رجلا لا يشك في شجاعته ولكنه لم يكن دبلوماسيا •

وتوفي سالم في يوليو عام ١٩٢١ وخلفه ابن اخيه احمد الجابر الابن الاكبر للشيخ جابر • وكان احمد الجابر بالطبع حفيد الشيخ مبارك ، ودام حكم احمد الجابر أكثر من ٢٨ عاما ، وتوفي في ٢٩ يناير عام ١٩٥٠ • وقد ازدهرت دولة الكويت في عهده ازدهارا عظيما ، ويرجع ازدهارها اساسا وليس كليا الى اكتشاف النفط فيها • ومن الطريف ان نذكر ان

* الشكوكي : النزاع الى الشك وخاصة في مبادئ الدين •

الشيخ احمد قاد بنفسه اول عملية حفر للتنقيب عن البترول في الكويت في ٣٠ مايو عام ١٩٣٦ . وكان احمد رجلا قديرا وقد صمد امام العواصف والمكائد السياسية مرات عديدة واثبت لاعدائه انه خصم صعب المنال .

- ٣ -

وشيخ الكويت الحالي هو عبدالله السالم المبارك ، ابن سالم وابن عم احمد ، ونحن نتمنى له حكما مزدهرا .

عندما كان السير ارنولد ويلسون مديرا عاما لشركة النفط البريطانية «الفارسية» والتي تعرف باسم شركة النفط البريطانية - الايرانية - تبرع بمبلغ ٥٠٠٠ روبية نيابة عن الشركة لبناء المستشفى النسائي التابع للارسالية في البحرين. كما ارسل ٢٥ جنيا كتبرع شخصي منه للهدف نفسه في ١١ نوفمبر عام ١٩٢٥ .

- ٤ -

نشر الدكتور تشامبرلين هذا المقال في مجلة « الجزيرة العربية المهمة » عدد ١٠ يناير وفبراير ومارس عام ١٩١٧ . وقد أعيدت تسمية المجلة فأصبحت تعرف بمجلة « النداء العربي » وهي مجلة فصلية خاصة تصدرها الارسالية العربية .

- ٥ -

من دواعي سروري العظيم أن أسجل أن المعتمد السياسي البريطاني المذكور كان يتعاطف كثيرا مع عملنا . وقد اعطانا في ٣٠ أكتوبر عام ١٩١٥ الف روبية من اجل بناء جناح جديد في المستشفى الرجالي التابع لنا في الكويت .

فهرس

الصفحة	العدد
مقدمة	٥
الكويت قبل النفط	١١
الحبائر الطية في البحرين	٢٤
الكويت عام ١٩١١	٣٤
تأسيس اول مستشفى في الكويت	٤٠
سنوات الحرب	٦٠
ابن سعود والاخوان	٧١
الاخوان على ابواب الكويت	٨٢
التخلف والتقدم في الكويت	٩٨
معاملة الحيوانات	١٠٢
سرقة وارجاع المسروق	١٠٥
العين بالعين	١٠٩
الفتاة متنوعة من الغزل	١١١
معجزة شفاء	١١٤
مهتد من الاسلام	١٢٢
الصحة العامة في الكويت	١٢٨
غزو الجراد	١٣٧
الكويت تنشيء مستشفاهها ومدرستها	١٤٢
كلمة وفاء للارسالية العربية	١٤٨
ملحق	١٥١

ملتزم الطبع : مؤسسة تلستار للاعلام
الكويت : ص.ب ٢١٩٣٣ ت ٤١٤٧٤١١

هذا الكتاب هو مذكرات لاحد الاطباء الذين عاشوا في الكويت والبحرين منذ بداية النصف الاول من هذا القرن ، وتشمل الفترة اربعين عاما بين سنة ١٩٠٧ الى سنة ١٩٤٧ .

ورغم ان هذه المذكرات تبدو للقارئ في اول الامر وكأنها ذكريات كتبت كيفما اتفق من شخص « يهوى » الكتابة ويمتهن « الطب » والتشخيص ، الا ان الملاحظ المدقق يمكن ان يتعرف على رموز القيادات البشرية التي تصفت للعمل السياسي في ذلك الوقت في الكويت وما جاورها ، فهو يصف رجالا قابلهم سواء من الكويتيين او من رجال حكوا بعضا من اقطار جزيرة العرب ، وسجل لنا بكل امانة ردود افعالهم كما شاهدها على كثير من الموضوعات . فقد وصف مثلا الشيخ مبارك حاكما فعال كما كان يراقب « وقد حكم مبارك الكويت بيد حديدية وكانت كلمته قانونا ولم يكن يسمح لاي من رعاياه بالاحتفاظ بحربه او حتى بجواد للرحوب ، اما المسنون المتعدون فكانوا يركبون حميرا متواضعة » كذلك وقد وصف « يوم الاحد الدامي » الذي عاشته الكويت في العاشر من اكتوبر ١٩٢٠ والذي كان يوم معركة الجبراء الشهيرة ، ووصف الاستعداد للحرب وطلقي انباء القسطنطينية وحالة المدينة الصغيرة آنذاك وهي تتوقع بين مينة واخرى دخول المحاربين المهزومين وخلقهم جموع المنتصرين يهبون المدينة الصغيرة ، وشمل ذلك وصف عملية بناء سور الكويت الذي كان من المروض ان يحم المدينة من الغزو ، وتارة بين هذا السور وكتب مبارك الصباح عندما قيل « ان الكويت لا تحتاج الى سور .. اننا سورها .. » .

نرجو ان يجد القارئ في هذا الكتاب بعضا وشيئا .

السر : ٥٥ فلس
او ما يعادل

مشتريات دار حراز للطباعة والنشر
الكويت

